لطائف من كتاب الحيوان للجاحظ

جمع : ولاء أبو غندر

{وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ}

سورة الأنعام.

****

الجاحِظ: أديبٌ عربيٌّ من أئمةِ الأدبِ في العصرِ العباسي، له آثارٌ جليلةٌ تُعدُّ من المُكوِّناتِ الرئيسيةِ للثقافةِ العربية، وتعتزُّ بها المَكتباتُ العربيةُ حتَّى اليوم.

وُلِدَ «أبو عثمانَ عمروُ بنُ بحرِ بنِ محبوبِ بنِ فزارةَ» الليثيُّ الكنانيُّ البَصْري، المُلقَّبُ بـ «الجاحِظ»، في البصرةِ إبَّانَ خلافةِ المَهْدي، عامَ ١٥٩هـ الموافِقَ ٧٧٦م — على الأرجحِ — واختُلِفَ في أصلِه، فقيلَ إنهُ عربيٌّ من قبيلةِ كنانة، وقيلَ إنَّ أصلَهُ زنجيٌّ وإنَّ جَدَّهُ كانَ مَوْلًى لرجلٍ من بَني كنانة. كانَ ثمةَ جُحوظٌ واضِحٌ في حدقتَيهِ فلُقِّبَ بـ «الحَدَقي»، ولكنَّ اللقبَ الذي اشتُهِرَ به هو «الجاحِظ». طلَبَ العلمَ في سِنٍّ مبكِّرة، فقرأَ القرآنَ ومبادئَ اللغةِ على شيوخِ بلدِه، ولكنَّ اليُتمَ والفقرَ حالَا دونَ تفرُّغهِ لطلبِ العِلم، فصارَ يبيعُ السمكَ والخبزَ في النهار، ويترددُ على دكاكينَ الورَّاقينَ في الليلِ فيقرأُ منها ما يَستطيع. أخذَ اللغةَ العربيةَ وآدابَها على يدِ «أبي عبيدة» مؤلِّفِ كتابِ «نقائِض جرير والفرزدق»، و«الأصمعي» صاحبِ الأصمَعيَّات، و«أبي زيد الأنصاري»، ودرَسَ النحوَ على يدِ «الأخفش»، وعِلمَ الكلامِ على يدِ «إبراهيم بن سيَّار البصري».

كان متَّصلًا كذلكَ بالثقافاتِ غيرِ العربية؛ كالفارسيةِ واليونانيةِ والِهندية، عن طريقِ قراءةِ أعمالٍ مترجَمةٍ أو مُناقَشةِ المُترجِمينَ أنفسِهم، كـ «حنين بن إسحاق» و«سلمويه»، وربَّما كانَ يُجيدُ اللغةَ الفارِسيَّة؛ لأنهُ دوَّنَ في كتابهِ «المحاسن والأضداد» بعضَ النصوصِ باللغةِ الفارسيَّة. وقد توجَّهَ إلى بغداد، وفيها تميَّزَ وبرَز، وتصدَّى للتدريس، وتولَّى ديوانَ الرسائلِ للخليفةِ المأمون.

انتهَجَ الجاحظُ في كُتبِهِ ورسائلِهِ أسلوبًا بحثيًّا يعتمدُ على الشكِّ والاستِقراء، رآهُ النُّقادُ على جانبٍ كبيرٍ من الضبطِ والتَّدقيق، وقد تميَّزَ بعقليَّةٍ نقديَّةٍ بارِعة، جعلتْهُ يُعبِّرُ عن أفكارِهِ بحسٍّ تهكُّميٍّ ساخِر، إلى جانبِ اتِّباعِه منهجَ التجريبِ فيما يتعلَّقُ بالعلومِ الطبيعية. وكانَ إنتاجُهُ شديدَ الغَزارةِ يَصعُبُ حَصرُه، ومِن أشهرِ كُتبِه: «البَيان والتبْيين»، و«الحَيَوان»، و«البُخَلاء»، وغَيرُها كثيرٌ في عِلمِ الكلامِ والأدبِ والسياسيةِ والتاريخِ والأخلاقِ والنباتِ والحيوانِ والصناعةِ وغيرِها.

تُوفِّيَ الجاحظُ عامَ ٢٥٥هـ الموافقَ ٨٦٨م، حينَ كانَ جالسًا في مكتبتِه فوقعَ عليهِ صفٌّ مِنَ الكُتبِ أَرْداهُ قتيلًا، فقَضى نحْبَه مدفونًا تحتَ الكُتبِ التي أحبَّها، مخلِّفًا وراءَه كتبًا ومقالاتٍ وأفكارًا خالِدة.

****

المجلد الأول :

(كتاب الحيوان كما يصفه الجاحظ)

أنّه كتاب معناه أنبه من اسمه، وحقيقته آنق من لفظه، وهو كتاب يحتاج إليه المتوسط العامي، أما الرّيض فللتعلّم والدربة، وللترتيب والرياضة، وللتمرين وتمكين العادة، إذ كان جليله يتقدم دقيقه، وإذا كانت مقدّماته مرتبة وطبقات معانيه منزّلة. وأما الحاذق فلكفاية المؤنة، لأن كلّ من التقط كتابا جامعا، وبابا من أمّهات العلم مجموعا، كان له غنمه، وعلى مؤلّفه غرمه، وكان له نفعه، وعلى صاحبه كدّه، مع تعرّضه لمطاعن البغاة، ولاعتراض المنافسين، ومع عرضه عقله المكدود على العقول الفارغة، ومعانيه على الجهابذة، وتحكيمه فيه المتأوّلين والحسدة.

****

هذا كتاب تستوي فيه رغبة الأمم، وتتشابه فيه العرب والعجم، لأنه وإن كان عربيّا أعرابيا، وإسلاميّا جماعيّا، فقد أخذ من طرف الفلسفة، وجمع بين معرفة السماع وعلم التجربة، وأشرك بين علم الكتاب والسنة، وبين

وجدان الحاسّة، وإحساس الغريزة. ويشتهيه الفتيان كما تشتهيه الشيوخ، ويشتهيه الفاتك كما يشتهيه الناسك، ويشتهيه اللاعب ذو اللهو كما يشتهيه المجدّ ذو الحزم، ويشتهيه الغفل كما يشتهيه الأريب، ويشتهيه الغبيّ كما يشتهيه الفطن.

****

(في ذم من أخذ إنسانًا بذنب غيره)

أمّا قول الشعراء وذمّ الخطباء لمن أخذ إنسانا بذنب غيره، وما ضربوا في ذلك من الأمثال، كقول النابغة حيث يقول في شعره:

وكلّفتني ذنب امرئ وتركته ... كذي العرّ يكوى غيره وهو راتع

وكانوا إذا أصاب إبلهم العرّ* كووا السليم ليدفعه عن السقيم، فأسقموا الصحيح من غير أن يبرئوا السقيم.

*عر الجمل بمعنى أصابه الجرب.

****

لمّا قال الخليل بن أحمد: لا يصل أحد من علم النحو إلى ما يحتاج إليه. حتّى يتعلّم ما لا يحتاج إليه، قال أبو شمر: إذا كان لا يتوصّل إلى ما يحتاج إليه إلّا بما لا يحتاج إليه، فقد صار ما لا يحتاج إليه يحتاج إليه

****

(في نعت الكتاب)

نعم الذخر والعقدة هو، ونعم الجليس والعدّة، ونعم النشرة والنزهة، ونعم المشتغل والحرفة، ونعم الأنيس لساعة الوحدة، ونعم المعرفة ببلاد الغربة ونعم القرين والدخيل، ونعم الوزير والنزيل.

والكتاب وعاء ملئ علمًا، وظرف حشي ظرفًا، وإناء شحن مزاحًا وجدّا؛ إن شئت كان أبين من سحبان وائل، وإن شئت كان أعيا من باقل، وإن

شئت ضحكت من نوادره، وإن شئت عجبت من غرائب فرائده، وإن شئت ألهتك طرائفه، وإن شئت أشجتك مواعظه.

****

متى رأيت بستانا يحمل في ردن (في كُمٍ) ، وروضة تقلّ في حجر، وناطقًا ينطق عن الموتى، ويترجم عن الأحياء!! ومن لك بمؤنس لا ينام إلّا بنومك، ولا ينطق إلّا بما تهوى؛ آمن من الأرض، وأكتم للسرّ من صاحب السرّ، وأحفظ للوديعة من أرباب الوديعة، وأحفظ لما استحفظ من الآدميّين.

****

لا أعلم جارا أبرّ، ولا خليطا أنصف، ولا رفيقا أطوع، ولا معلّما أخضع، ولا صاحبا أظهر كفاية، ولا أقلّ جناية، ولا أقلّ إملالا وإبراما، ولا أحفل أخلاقا، ولا أقلّ خلافًا وإجرامًا، ولا أقلّ غيبة، ولا أبعد من عضيهة* ، ولا أكثر أعجوبة وتصرّفًا، ولا أقلّ تصلّفًا وتكلّفًا، ولا أبعد من مراء، ولا أترك لشغب، ولا أزهد في جدال، ولا أكفّ عن قتال، من كتاب. ولا أعلم قرينًا أحسن موافاة، ولا أعجل مكافأة، ولا أحضر معونة، ولا أخفّ مؤونة، ولا شجرة أطول عمرًا، ولا أجمع مرًا، ولا أطيب ثمرة، ولا أقرب مجتنى، ولا أسرع إدراكًا، ولا أوجد في كلّ إبّان، من كتاب.

* عضيهة بمعنى اختلاق الكذب.

****

(في فضل الكتاب)

الكتاب هو الذي يؤدّي إلى الناس كتب الدين، وحساب الدواوين مع خفّة نقله، وصغر حجمه؛ صامت ما أسكتّه، وبليغ ما استنطقته. ومن لك بمسامر لا يبتديك في حال شغلك، ويدعوك في أوقات نشاطك، ولا يحوجك إلى التجمّل له والتذمّم منه. ومن لك بزائر إن شئت جعل زيارته غبّا، وورده خمسًا، وإن شئت لزمك لزوم ظلّك، وكان منك مكان بعضك.

****

والكتاب هو الجليس الذي لا يطريك، والصديق الذي لا يغريك، والرفيق الذي لا يملّك، والمستميح الذي لا يستريثك* ، والجار الذي لا يستبطيك، والصاحب الذي لا يريد استخراج ما عندك بالملق، ولا يعاملك بالمكر، ولا يخدعك بالنّفاق، ولا يحتال لك بالكذب. والكتاب هو الذي إن نظرت فيه أطال إمتاعك، وشحذ طباعك، وبسط لسانك، وجوّد بنانك، وفخّم ألفاظك، وبجّح** نفسك، وعمّر صدرك، ومنحك تعظيم العوامّ وصداقة الملوك، وعرفت به في شهر، ما لا تعرفه من أفواه الرجال في دهر، مع السلامة من الغرم، ومن كدّ الطلب، ومن الوقوف بباب المكتسب بالتعليم، ومن الجلوس بين يدي من أنت أفضل منه خلقا، وأكرم منه عرقا، ومع السلامة من مجالسة البغضاء ومقارنة الأغبياء.

*المستميح: طالب العرف، واستراثه: استبطأه.

**بجَّح: أي أفرح نفسك.

****

(أقوال بعض العلماء في فضل الكتب)

وقال أبو عبيدة، قال المهلّب لبنيه في وصيّته: يا بنيّ لا تقوموا في الأسواق إلّا على زرّاد* أو ورّاق.

وسمعت الحسن اللؤلؤي يقول: غبرت أربعين عاما ما قِلْتُ ولا بتُّ ولا اتكأت إلّا والكتاب موضوع على صدري.

وقال ابن الجهم: إذا استحسنت الكتاب واستجدته، ورجوت منه الفائدة ورأيت ذلك فيه- فلو تراني وأنا ساعة بعد ساعة أنظر كم بقي من ورقه مخافة استنفاده، وانقطاع المادّة من قلبه، وإن كان المصحف عظيم الحجم كثير الورق، كثير العدد- فقد تمّ عيشي وكمل سروري.

*الزراد هو صانع الدروع.

****

(في مدح الإنفاق على الكتب)

ليس ينتفع بإنفاقه، حتّى يؤثر اتّخاذ الكتب إيثار الأعرابي فرسه باللبن على عياله، وحتّى يؤمّل في العلم ما يؤمّل الأعرابي في فرسه.

وقال إبراهيم بن السّنديّ مرة: سخاء النفس بالإنفاق على الكتب دليل على تعظيم العلم، وتعظيم العلم دليل على شرف النفس، وعلى السلامة من سكر الآفات.

****

(التخصص في العلوم وحفظها)

قال الخليل بن أحمد: تكثّر من العلم لتعرف، وتقلّل منه لتحفظ.

وقال أبو إسحاق: القليل والكثير للكتب، والقليل وحده للصدر.

وأنشد قول ابن يسير:

أما لو أعي كلّ ما أسمع   وأحفظ من ذاك ما أجمع

ولم أستفد غير ما قد جمعت   لقيل هو العالم المصقع

ولكنّ نفسي إلى كلّ نوع   من العلم تسمعه تنزع

فلا أنا أحفظ ما قد جمعت   ولا أنا من جمعه أشبع

وأحصر بالعيّ في مجلسي   وعلمي في الكتب مستودع

فمن يك في علمه هكذا   يكن دهره القهقرى يرجع

إذا لم تكن حافظا واعيا   فجمعك للكتب لا ينفع

****

(جمع الكتب)

وحدّثني موسى بن يحيى قال: ما كان في خزانة كتب يحيى، وفي بيت مدارسه كتاب إلّا وله ثلاث نسخ.

وقال أبو عمرو بن العلاء: ما دخلت على رجل قطّ ولا مررت ببابه، فرأيته ينظر في دفتر وجليسه فارغ اليد، إلّا اعتقدت أنّه أفضل منه وأعقل.

وقال ابن داحة: كان عبد الله بن عبد العزيز بن عبد الله بن عمر بن الخطّاب، لا يجالس الناس، وينزل مقبرة من المقابر، وكان لا يكاد يرى إلّا وفي يده كتاب يقرؤه. فسئل عن ذلك، وعن نزوله المقبرة فقال: لم أر أوعظ من قبر، ولا أمنع من كتاب، ولا أسلم من الوحدة، فقيل له: قد جاء في الوحدة ما جاء! فقال: ما أفسدها للجاهل وأصلحها للعاقل!.

****

(صعوبة ترجمة الشعر)

الشعر لا يستطاع أن يترجم، ولا يجوز عليه النقل، ومتى حوّل تقطّع نظمه وبطل وزنه، وذهب حسنه وسقط موضع التعجب.

****

(الكتاب قد يفضل على صاحبه)

والكتاب قد يفضل صاحبه، ويتقدّم مؤلّفه، ويرجّح قلمه على لسانه بأمور:

منها أنّ الكتاب يقرأ بكلّ مكان، ويظهر ما فيه على كلّ لسان، ويوجد مع كلّ زمان، على تفاوت ما بين الأعصار، وتباعد ما بين الأمصار، وذلك أمر يستحيل في واضع الكتاب، والمنازع في المسألة والجواب. ومناقلة اللسان وهدايته لا تجوزان مجلس صاحبه، ومبلغ صوته. وقد يذهب الحكيم وتبقى كتبه، ويذهب العقل ويبقى أثره.

ولولا ما أودعت لنا الأوائل في كتبها، وخلّدت من عجيب حكمتها، ودوّنت من أنواع سيرها، حتّى شاهدنا بها ما غاب عنّا، وفتحنا بها كلّ مستغلق

كان علينا، فجمعنا إلى قليلنا كثيرهم، وأدركنا ما لم نكن ندركه إلّا بهم، لما حسن حظّنا من الحكمة، ولضعف سببنا إلى المعرفة. ولو لجأنا إلى قدر قوّتنا، ومبلغ خواطرنا، ومنتهى تجاربنا لما تدركه حواسّنا، وتشاهده نفوسنا، لقلّت المعرفة، وسقطت الهمّة، وارتفعت العزيمة، وعاد الرأي عقيما، والخاطر فاسدا، ولكلّ الحدّ وتبلّد العقل.

****

(وجوب العناية بتنقيح الكتب)

ينبغي لمن كتب كتابا ألا يكتبه إلّا على أنّ النّاس كلّهم له أعداء، وكلّهم عالم بالأمور، وكلّهم متفرّغ له، ثم لا يرضى بذلك حتى يدع كتابه غفلا، ولا يرضى بالرأي الفطير، فإنّ لابتداء الكتاب فتنة وعجبا، فإذا سكنت الطبيعة وهدأت الحركة، وتراجعت الأخلاط، وعادت النفس وافرة، أعاد النّظر فيه، فيتوقّف عند فصوله توقّف من يكون وزن طمعه في السلامة أنقص من وزن خوفه من العيب.

****

(خير ميراث)

خير ميراث ورّث كتب وعلم، وخير المورّثين من أورث ما يجمع ولا يفرّق،. ويبصّر ولا يعمي. ويعطي ولا يأخذ.

ويجود بالكلّ دون البعض. ويدع لك الكنز الذي ليس للسلطان فيه حقّ. والرّكاز الذي ليس للفقراء فيه نصيب، والنّعمة التي ليس للحاسد فيها حيلة. ولا للّصوص فيها رغبة، وليس للخصم عليك فيه حجّة، ولا على الجار فيه مؤونة.

(أمثال في الحيوان)

(أكل الهرة أولادها)

كرم عند العرب حظّ الهرّة، لقولهم: أبرّ من هرّة، وأعقّ من ضبّ. فوجّهوا أكل الهرّة أولادها على شدّة الحبّ لها، ووجّهوا أكل الضبّ لها على شدّة

البغض لها، وليس ينجو منه شيء منها إلّا بشغله بأكل إخوته عنه، وليس يحرسها ممّا يأكلها إلّا ليأكلها. ولذلك قال العملّس بن عقيل، لأبيه عقيل بن علّفة:

أكلت بنيك أكل الضّبّ حتّى وجدت مرارة الكلأ الوبيل

فلو أنّ الألى كانوا شهودا منعت فناء بيتك من بجيل

****

(رعاية الذئبة لولد الضبع)

وتقول العرب أيضا: «أحمق من جهيزة»، وهي عرس الذئب؛ لأنّها تدع ولدها وترضع ولد الضبع.

****

(حمق النعام)

ويقولون: «أحمق من نعامة»، كما يقولون: «أشرد من نعامة»، قالوا ذلك

لأنّها تدع الحضن على بيضها ساعة الحاجة إلى الطّعم، فإن هي في خروجها ذلك رأت بيض أخرى قد خرجت للطّعم، حضنت بيضها ونسيت بيض نفسها، ولعلّ تلك أن تصاد فلا ترجع إلى بيضها بالعراء حتّى تهلك. قالوا: ولذلك قال ابن هرمة:

فإنّي وتركي ندى الأكرمين وقدحي بكفّي زندا شحاحا

كتاركة بيضها بالعراء وملبسة بيض أخرى جناحا

****

(الفرخ والفروج)

وكلّ بيضة في الأرض فإنّ اسم الذي فيها والذي يخرج منها فرخ، إلّا بيض الدّجاج فإنّه يسمى فرّوجا. ولا يسمّى فرخا، إلّا أن الشعراء يجعلون

الفرّوج فرخا على التوسّع في الكلام. ويجوّزون في الشعر أشياء لا يجوّزونها في غير الشعر، قال الشاعر:

لعمري لأصوات المكاكيّ بالضّحى وسود تداعى بالعشيّ نواعبه

أحبّ إلينا من فـــــراخ دجاجـــة ومن ديك أنباط تنوس غباغبه

****

(علة امتزاج الخير والشر في الكون)

اعلم أنّ المصلحة في أمر ابتداء الدنيا إلى انقضاء مدّتها امتزاج الخير بالشرّ، والضارّ بالنافع، والمكروه بالسارّ، والضّعة بالرّفعة، والكثرة بالقلّة. ولو كان الشرّ صرفا هلك الخلق، أو كان الخير محضا سقطت المحنة وتقطّعت أسباب الفكرة، ومع عدم الفكرة يكون عدم الحكمة، ومتى ذهب التخيير ذهب التمييز، ولم يكن للعالم تثبّت وتوقّف وتعلّم، ولم يكن علم، ولا يعرف باب التبيّن، ولا دفع مضرة، ولا اجتلاب منفعة، ولا صبر على مكروه ولا شكر على محبوب، ولا تفاضل في بيان، ولا تنافس في درجة، وبطلت فرحة الظّفر وعزّ الغلبة، ولم يكن على ظهرها محقّ يجد عزّ الحق، ومبطل يجد ذلّة الباطل، وموقن يجد برد اليقين، وشاكّ يجد نقص الحيرة وكرب الوجوم؛ ولم تكن للنفوس آمال ولم تتشعّبها الأطماع. ومن لم يعرف كيف الطّمع لم يعرف اليأس، ومن جهل اليأس جهل الأمن، وعادت الحال من الملائكة الذين هم صفوة الخلق، ومن الإنس الذين فيهم الأنبياء والأولياء، إلى حال السبع والبهيمة، وإلى حال الغباوة والبلادة، وإلى حال النجوم في السّخرة؛ فإنها أنقص من حال البهائم في الرّتعة. ومن هذا الذي يسرّه أن يكون الشمس والقمر والنّار والثلج، أو برجا من البروج أو قطعة من الغيم؛ أو يكون المجرّة بأسرها، أو مكيالا من الماء أو مقدارا من الهواء؟! وكلّ شيء في العالم فإنما هو للإنسان ولكلّ مختبر ومختار، ولأهل العقول والاستطاعة، ولأهل التبيّن والرويّة.

وأين تقع لذّة البهيمة بالعلوفة، ولذّة السبع بلطع الدّم وأكل اللحم- من سرور الظّفر بالأعداء؛ ومن انفتاح باب العلم بعد إدمان القرع؟ وأين ذلك من

سرور السّودد ومن عزّ الرياسة؟ وأين ذلك من حال النّبوّة والخلافة، ومن عزّهما وساطع نورهما.

وأين تقع لذّة درك الحواسّ الذي هو ملاقاة المطعم والمشرب، وملاقاة الصوت المطرب واللّون المونق، والملمسة الليّنة- من السرور بنفاذ الأمر والنّهي، وبجواز التوقيع، وبما يوجب الخاتم من الطاعة ويلزم من الحجّة؟!.

ولو استوت الأمور بطل التمييز، وإذا لم تكن كلفة لم تكن مثوبة، ولو كان ذلك لبطلت ثمرة التوكّل على الله تعالى، واليقين بأنّه الوزر والحافظ، والكالئ والدافع، وأنّ الذي يحاسبك أجود الأجودين، وأرحم الراحمين، وأنه الذي يقبل اليسير ويهب الكثير، ولا يهلك عليه إلّا هالك. ولو كان الأمر على ما يشتهيه الغرير والجاهل بعواقب الأمور، لبطل النّظر وما يشحذ عليه، وما يدعو إليه، ولتعطّلت الأرواح من معانيها، والعقول من ثمارها، ولعدمت الأشياء حظوظها وحقوقها.

فسبحان من جعل منافعها نعمة، ومضارّها ترجع إلى أعظم المنافع، وقسّمها بين ملذّ ومؤلم، وبين مؤنس وموحش، وبين صغير حقير وجليل كبير، وبين عدوّ يرصدك وبين عقيل يحرسك، وبين مسالم يمنعك، وبين معين يعضدك، وجعل في الجميع تمام المصلحة، وباجتماعها تتمّ النعمة، وفي بطلان واحد منها بطلان الجميع، قياسا قائما وبرهانا واضحا. فإنّ الجميع إنّما هو واحد ضمّ إلى واحد وواحد ضمّ إليهما، ولأن الكلّ أبعاض، ولأنّ كلّ جثّة فمن أجزاء، فإذا جوّزت رفع واحد والآخر مثله في الوزن وله مثل علّته وحظّه ونصيبه، فقد جوّزت رفع الجميع؛ لأنّه ليس الأول بأحقّ من الثاني في الوقت الذي رجوت فيه إبطال الأوّل، والثاني كذلك والثالث والرابع، حتّى تأتي على الكلّ وتستفرغ الجميع. كذلك الأمور المضمّنة والأسباب المقيّدة؛ ألا ترى أنّ الجبل ليس بأدلّ على الله تعالى من الحصاة، وليس الطاوس المستحسن بأدلّ على الله تعالى من الخنزير المستقبح. والنار والثلج وإن اختلفا في جهة البرودة والسّخونة، فإنّهما لم يختلفا في جهة البرهان والدّلالة.

وأظنّك ممّن يرى أنّ الطاوس أكرم على الله تعالى من الغراب، وأن التّدرج أعزّ على الله تعالى من الحدأة، وأنّ الغزال أحبّ إلى الله تعالى من الذئب. فإنّما هذه أمور فرّقها الله تعالى في عيون الناس، وميّزها في طبائع العباد، فجعل بعضها بهم أقرب شبها، وجعل بعضها إنسيّا، وجعل بعضها وحشيّا، وبعضها غاذيا، وبعضها قاتلا. وكذلك الدّرّة والخرزة والتمرة والجمرة.

فلا تذهب إلى ما تريك العين واذهب إلى ما يريك العقل.

****

(فائدة لغوية)

ونراهم يسمّون الرجل جملا ولا يسمّونه بعيرا، ولا يسمّون المرأة ناقة؛ ويسمّون الرجل ثورا ولا يسمّون المرأة بقرة، ويسمّون الرجل حمارا ولا يسمون المرأة أتانا؛ ويسمّون المرأة نعجة ولا يسمّونها شاة.

****

(طائفة من الأمثال في الحيوان)

يقال: أجرأ من الليث، وأجبن من الصّفرد، وأسخى من لافظة، وأصبر على الهون من كلب، وأحذر من عقعق، وأزهى من غراب، وأصنع من سرفة، وأظلم من حيّة، وأغدر من الذئب، وأخبث من ذئب الحمز، وأشدّ عداوة من عقرب، وأروغ من ثعلب، وأحمق من حبارى ، وأهدى من قطاة، وأكذب من فاختة، وألأم من كلب على جيفة، وأجمع من ذرّة، وأضلّ من حمار أهلي، وأعقّ من ضبّ، وأبرّ من هرّة، وأنفر من الظليم، وأضلّ من ورل، وأضلّ من ضبّ، وأظلم من الحيّة.

****

(قصة)

ذكر لي عن أبي بكر الهذليّ، قال: كنّا عند الحسن إذ أقبل وكيع بن أبي سود فجلس، فقال يا أبا سعيد: ما تقول في دم البراغيث يصيب الثوب: أيصلّى فيه؟

فقال: يا عجبا ممّن يلغ في دماء المسلمين كأنّه كلب، ثم يسأل عن دم البراغيث!! فقام وكيع يتخلّج في مشيته كتخلّج المجنون، فقال الحسن: إنّ لله في كلّ عضو منه نعمة فيستعين بها على المعصية، اللهمّ لا تجعلنا ممّن يتقوّى بنعمتك على معصيتك!!

****

(مثل)

وقال يحيى الأغرّ: تقول العرب «سدك به جُعَله»*.

وقال الشاعر:

إذا أتيت سليمى شبّ لي جُعَلٌ   إنّ الشقيّ الذي يغرى به الجُعَلُ

يضرب هذا المثل للرّجل إذا لصق به من يكره، وإذا كان لا يزال يراه وهو يهرب منه.

قال يحيى: وكان أصله ملازمة الجُعَلِ لمن بات في الصحراء، فكلّما قام لحاجة تبعه؛ لأنّه عنده أنّه يريد الغائط.

*سدك بمعنى لزم، والجُعَل: نوع من الحشرات كالخنفساء يأتي على الروث.

****

(الفلحس)

يقال للكلب «فلحس» وهو من صفات الحرص والإلحاح. ويقال: «فلان أسأل من فلحس»، وفلحس: رجل من بني شيبان كان حريصا رغيبا، وملحفا ملحّا. وكلّ طفيليّ فهو عندهم فلحس.

****

(أمثال في الكلب)

وقال كعب الأحبار لرجل وأراد سفرا: إنّ لكلّ رفقة كلبا، فلا تكن كلب أصحابك.

وتقول العرب: «أحبّ أهلي إليّ كلبهم الظاعن»، ومن الأمثال «وقع الكلب على الذّئب ليأخذ منه مثل ما أخذ. ومن أمثالهم: «الكلاب على البقر».

ومن أمثالهم في الشؤم قولهم: «على أهلها دلّت براقش»، وبراقش: كلبة قوم نبحت على جيش مرّوا ليلا وهم لا يشعرون بالحيّ، فاستباحوهم واستدلّوا على مواضعهم بنباحها.

****

(كلمات اسلامية محدثة)

وأسماء حدثت ولم تكن، وإنّما اشتقّت لهم من أسماء متقدّمة، على التشبيه، مثل قولهم لمن أدرك الجاهليّة والإسلام مخضرم كأبي رجاء العطارديّ، بن سالمة، وشقيق بن سالمة؛ ومن الشعراء النابغة الجعديّ وابن مقبل، وأشباههم من الفقهاء والشعراء. ويدلّ على أنّ هذا الاسم أحدث في الإسلام، أنّهم في الجاهليّة لم يكونوا يعلمون أنّ ناسا يسلمون وقد أدركوا الجاهليّة، ولا كانوا يعلمون أنّ الإسلام يكون.

ومن المحدث المشتقّ، اسم منافق لمن رَاءَى بالإسلام واستسرّ بالكفر أخذ

ذلك من النافقاء والقاصعاء والدامّاء، ومثل المشرك والكافر، ومثل التيمّم. قال الله تعالى: {فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً طَيِّباً} أي تحرّوا ذلك وتوخّوه. وقال: {فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ}

فكثر هذا في الكلام حتّى صار التيمّم هو المسح نفسه، وكذلك عادتهم وصنيعهم في الشيء إذا طالت صحبتهم وملابستهم له.

وكما سمّوا رجيع الإنسان الغائط، وإنّما الغيطان البطون التي كانوا ينحدرون فيها إذا أرادوا قضاء الحاجة للستر.

****

(كلمات للنبي صلى الله عليه وسلم، لم يتقدمه فيهن أحد)

وكلمات النبيّ صلى الله عليه وسلم، لم يتقدّمه فيهنّ أحد: من ذلك قوله: «إذا لا ينتطح فيها عنزان»، ومن ذلك قوله: «مات حتف أنفه»، ومن ذلك قوله: «يا خيل الله اركبي»، ومن ذلك قوله: «كلّ الصّيد في جوف الفرا»، وقوله: «لا يلسع المؤمن من جحر مرتين».

****

(ما يكره من الكلام)

وأما الكلام الذي جاءت به كراهية من طريق الروايات، فروي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنّه قال: «لا يقولنّ أحدكم خبثت نفسي ولكن ليقل لقست نفسي»، كأنه كره صلى الله عليه وسلم أن يضيف المؤمن الطاهر إلى نفسه الخبث والفساد بوجه من الوجوه.

وجاء عن عمر ومجاهد وغيرهما النهي عن قول القائل: استأثر الله بفلان، بل يقال مات فلان. ويقال استأثر الله بعلم الغيب واستأثر الله بكذا وكذا.

قال النّخعيّ: كانوا يكرهون أن يقال: قراءة عبد الله، وقراءة سالم، وقراءة أبيّ، وقراءة زيد. وكانوا يكرهون أن يقولوا سنّة أبي بكر وعمر، بل يقال سنّة الله وسنّة رسوله، ويقال فلان يقرأ بوجه كذا، وفلان يقرأ بوجه كذا.

وكـره مجاهـد أن يقولـوا مسـيجد ومصـيحف، للمسـجد القليـل الـذّرع، والمصحف القليل الورق. ويقول: هم وإن لم يريدوا التصغير فإنّه بذلك شبيه.

****

(وجوه تصغير الكلام)

وربّما صغّروا الشيء من طريق الشّفقة والرّقّة، كقول عمر: أخاف على هذا العريب. وليس التصغير بهم يريد. وقد يقول الرجل: إنّما فلان أخيّي وصديّقي؛ وليس التصغير له يريد. وذكر عمر ابن مسعود فقال: «كنيف ملئ علما». وقال الحباب بن المنذر يوم السّقيفة: «أنا جذيلها المحكك، وعذيقها المرجّب».

وهذا كقول النبيّ صلى الله عليه وسلم لعائشة: «الحميراء»، وكقولهم لأبي قابوس الملك: أبو قبيس. وكقولهم: دبّت إليه دويهية الدهر، وذلك حين أرادوا لطافة المدخل ودقّة المسلك.

ويقال إنّ كلّ فعيل في أسماء العرب فإنّما هو على هذا المعنى، كقولهم

المعيديّ، وكنحو: سليم، وضمير، وكليب، وعقير، وجعيل، وحميد، وسعيد، وجبير؛ وكنحو عبيد، وعبيد الله، وعبيد الرماح. وطريق التحقير والتصغير إنّما هو كقولهم: نجيل ونذيل. قالوا: وربّ اسم إذا صغّرته كان أملأ للصّدر، مثل قولك أبو عبيد الله، هو أكبر في السماع من أبي عبد الله، وكعب بن جعيل، هو أفخم من كعب بن جعل. وربّما كان التصغير خلقة وبنية، لا يتغيّر، كنحو الحميّا والسّكيت، وجنيدة، والقطيعا، والمريطاء، والسّميراء، والمليساء- وليس هو كقولهم القصيرى، وفي كبيدات السماء والثّريا.

وقال عليّ بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه: دققت الباب على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: من هذا؟ فقلت: أنا. فقال: أنا! كأنّه كره قولي أنا.

وقال عمر بن الخطّاب رضي الله عنه: لا يقل أحدكم أهريق الماء ولكن يقول أبول.

وسأل عمر رجلا عن شيء، فقال: الله أعلم. فقال عمر: قد خزينا إن كنّا لا نعلم أنّ الله أعلم؛ إذا سئل أحدكم عن شيء فإن كان يعلمه قاله، وإن كان لا يعلمه قال: لا علم لي بذلك.

وسمع عمر رجلا يدعو ويقول؛ اللهمّ اجعلني من الأقلّين! قال: ما هذا الدعاء؟

قال: إنّي سمعت الله عزّ وجلّ يقول:{ وَقَلِيلٌ مِنْ عِبادِيَ الشَّكُورُ}

وقال: {وَما آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ}

قال عمر: عليك من الدعاء بما يعرف.

وكره عمر بن عبد العزيز قول الرجل لصاحبه: ضعه تحت إبطك، وقال: هلّا قلت تحت يدك وتحت منكبك! وقال مرّة- وراث فرس بحضرة سليمان- فقال:

ارفعوا ذلك النّثيل، ولم يقل ذلك الرّوث.

وقالت عائشة رضي الله عنها: «قولوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين، ولا تقولوا: لا نبيّ بعده» فإلّا تكن ذهبت إلى نزول المسيح فما أعرف له وجها إلّا أن تكون قالت لا تغيّروا ما سمعتم، وقولوا كما قيل لكم، والفظوا بمثله سواء.

وكره ابن عمر رضي الله عنهما قول القائل: أسلمت في كذا وكذا، وقال: ليس الإسلام إلّا لله عزّ وجلّ. وهذا الكلام مجازه عند الناس سهل، وقد كرهه ابن عمر، وهو أعلم بذلك.

وكره ابن عبّاس رضي الله عنهما قول القائل: أنا كسلان.

وقال عمر: لا تسمّوا الطريق السّكّة.

وكره أبو العالية قول القائل: كنت في جنازة، وقال: قل تبعت جنازة. كأنّه ذهب إلى أنّه عنى أنّه كان في جوفها، وقال قل تبعت جنازة. والناس لا يريدون هذا، ومجاز هذا الكلام قائم.

وكره ابن عبّاس قول القائل: الناس قد انصرفوا، يريد من الصلاة، قال بل قولوا: قد قضوا الصلاة، وقد فرغوا من الصلاة، وقد صلّوا؛ لقوله: ثُمَّ {انْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ}.

****

(الصّرورة)

ومن الأسماء المحدثة التي قامت مقام الأسماء الجاهليّة، قولهم في الإسلام لمن لم يحجّ: صرورة.

وأنت إذا قرأت أشعار الجاهليّة وجدتهم قد وضعوا هذا الاسم على خلاف هذا الموضع.

والصرورة عندهم إذا كان أرفع الناس في مراتب العبادة، وهو اليوم اسم للذي لم يحجّ إمّا لعجز، وإمّا لتضييع، وإمّا لإنكار، فهما مختلفان كما ترى.

****

(مثل: بكل واد بنو سعد)

قال: ولمّا تأذّى الأضبط بن قريع في بني سعد، جاور ناسًا فلما رأى مذهبهم وظلمهم ونهكهم، قال: بكلّ واد بنو سعد.

فأرسلها مثلًا.

****

انتهى ما اخترته من لطائف المجلد الأول ويليه لطائف من المجلد الثاني.

****

(استطراد لغوي)

وقال بعض العلماء: كلب أبقع، وفرس أبلق، وكبش أملح ، وتيس أبرق، وثور أشيه .

ويقال كلب وكلاب وكليب، ومعز وماعز ومعيز. وقال لبيد:

فبتنا حيث أمسينا قريبا   على جسداء تنبحنا الكليبُ

وقال أبو زيد: قال ردّاد: أقول للرجل الّذي إذا ركب الإبل فعقر ظهورها من إتعابه. هذا رجل معقر، وكذلك السّرج والقتب، ولا يقال للكلب إلّا عقور. ويقال هو ضرو للكلب الضاري على الصيد، وضروة للكلبة، وهذا ضراء كثيرة، وكلب ضار، وكلاب ضوار. وقد ضريت أشدّ الضراوة. وقال ذو الرّمّة:

مقزّع أطلس الأطمار ليس له   إلّا الضّراء وإلا صيدها نشب

****

(مما قيل في نفع الكلاب)

وقال الشاعر في تثبيت ما قال الغلام:

تعدو الذّئاب على من لا كلاب له   وتتّقي صولة المستأسد الضاري

وقال الآخر:

إنّ الذئاب ترى من لا كلاب له   وتتّقي حوزة المستثفر الحامي

****

(ما بين الشدة واللين)

وبعد فأيّ رئيس كان خيره محضا عُدِمَ الهيبة. ومن لم يعمل بإقامة جزاء السيئة والحسنة، وقتل في موضع القتل، وأحيا في موضع الإحياء. وعفا في موضع العفو، وعاقب في موضع العقوبة، ومنع ساعة المنع، وأعطى ساعة الإعطاء، خالف الرّبّ في تدبيره، وظنّ أن رحمته فوق رحمة ربه.

وقد قالوا: بعض القتل إحياء للجميع. وبعض العفو إغراء، كما أنّ بعض المنع إعطاء، ولا خير فيمن كان خيره محضا، وشرّ منه من كان شرّه صرفا، ولكن اخلط الوعد بالوعيد، والبشر بالعبوس، والإعطاء بالمنع، والحلم بالإيقاع، فإنّ الناس لا يهابون ولا يصلحون إلّا على الثّواب والعقاب، والإطماع والإخافة. ومن أخاف ولم يوقع وعرف بذلك، كان كمن أطمع ولم ينجز وعرف بذلك، ومن عرف بذلك دخل عليه بحسب ما عرف منه. فخير الخير ما كان ممزوجا، وشرّ الشرّ ما كان صرفا، ولو كان النّاس يصلحون على الخير وحده لكان الله عزّ وجلّ أولى بذلك الحكم.

وفي إطباق جميع الملوك وجميع الأئمة في جميع الأقطار وفي جميع الأعصار على استعمال المكروه والمحبوب، دليل على أنّ الصواب فيه دون غيره.

وإذا كان الناس إنما يصلحون على الشّدّة واللين، وعلى العفو والانتقام وعلى البذل والمنع، وعلى الخير والشرّ، عاد بذلك الشرّ خيرا وذلك المنع إعطاء وذلك المكروه محبوبا. وإنّما الشأن في العواقب، وفيما يدوم ولا ينقطع وفيما هو أدوم، ومن الأنقطاع أبعد.

وقال الشاعر، وهو يمدح قومًا:

إن يسألوا الخير يعطوه وإن جهدوا   فالجهد يخرج منهم طيب أخبار

وإن تودّدتهم لانوا وإن شهموا   كشفت أذمار حرب غير أغمار

****

(أسباب السعادة)

ومن الناس من يقول: إن العيش كلّه في كثرة المال، وصحة البدن، وخمول الذكر.

وقال من يخالفه: لا يخلو صاحب البدن الصّحيح والمال الكثير، من أن يكون بالأمور عالما، أو يكون بها جاهلا. فإن كان بها عالما فعلمه بها لا يتركه حتّى يكون له من القول والعمل على حسب علمه، لأنّ المعرفة لا

تكون كعدمها، لأنّها لو كانت موجودة غير عاملة لكانت المعرفة كعدمها، وفي القول والعمل ما أوجب النّباهة، وأدنى حالاته أن تخرجه من حدّ الخمول، ومتى أخرجته من حدّ الخمول فقد صار معرّضا لمن يقدر على سلبه.

وكما أنّ المعرفة لا بدّ لها من عمل، ولا بدّ للعمل من أن يكون قولا أو فعلا، والقول لا يكون قولا إلّا وهناك مقول له، والفعل لا يكون فعلا إلّا وهناك مفعول له، وفي ذلك ما أخرج من الخمول وعرف به الفاعل.

وإذا كانت المعرفة هذا عملها في التنبيه على نفسها، فالمال الكثير أحقّ بأنّ عمله الدّلالة على مكانه، والسّعاية على أهله. والمال أحقّ بالنميمة، وأولى بالشكر، وأخدع لصاحبه، بل يكون له أشدّ قهرا، ولحيّه أشدّ فسادا.

وإن كانت معرفته ناقصة فبقدر نقصانها يجهل مواضع اللذة. وإن كانت تامّة فبقدر تمامها ينفى الخمول ويجلب الذّكر.

وبعد فليس يفهم فضيلة السلامة. وحقائق رشد العافية، الذين ليس لهم من المعرفة إلّا الشّدو، وإلّا خلاق أوساط الناس. ومتى كان ذلك كذلك، لم يعرف المدخل الذي من أجله يكره ذو المال الشّهرة. ومن عرف ذلك على حقّه وصدقه، لم يدعه فهمه لذلك حتّى يدلّ على فهمه. وعلى أنّه لا يفهم هذا الموضع حتّى يفهم كلّ ما كان في طبقته من العلم. وفي أقلّ من ذلك ما يبين به حاله من حال الخامل.

وشروط الأمانيّ غير شروط جواز الأفعال وإمكان الأمور. وليس شيء ألذّ ولا أسرّ من عزّ الأمر والنهي، ومن الظّفر بالأعداء، ومن عقد المنن في أعناق الرجال، والسّرور بالرّياسة وبثمرة السيادة، لأنّ هذه الأمور هي نصيب الرّوح، وحظّ الذهن، وقسم النّفس. فأمّا المطعم والمشرب والمنكح والمشمّة، وكلّ ما كان من نصيب الحواسّ، فقد علمنا أن كلّ ما كان أشدّ نهما وأرغب، كان أتمّ لوجدانه الطعم. وذلك قياس على مواقع الطّعم من الجائع، والشراب من العطشان.

ولكنّا إذا ميّلنا بين الفضيلة التي مع السّرور، وبين لذّة الطعام، وما يحدث الشّره له من ألم السهر والالتهاب والقلق وشدّة الكلب، رأينا أنّ صاحبه مفضول غير فاضل. هذا مع ما يسبّ به، ومع حمله له على القبيح، وعلى أنّ نعمته متى زالت لم يكن أحد أشقى منه. هذا مع سرور العالم بما وهب الله له من السلامة من آفة الشّره، ومن فساد الأخلاط.

وبعد فلا يخلو صاحب الثّروة والصامت الكثير ، الخامل الذكر من أن يكون ممّن يرغب في المركب الفاره، والثوب اللين، والجارية الحسنة، والدار الجيّدة، والمطعم الطيّب، أو يكون ممن لا يرغب في شيء من ذلك. فإن كان لا يرغب في هذا النوع كلّه، ولا يعمل في ماله للدّار الآخرة. ولا يعجب بالأحدوثة الحسنة، ويكون ممن لا تعدو لذّته أن يكون كثير الصامت، فإنّ هذا حمار أو أفسد طبعا من الحمار، وأجهل من الحمار، وقد رضي أن يكون في ماله أسوأ حالا من الوكيل.

وبعد فلا بدّ للمال الكثير من الحراسة الشّديدة، ومن الخوف عليه، فإن أعمل الحراسة له، وتعب في حفظه وحسب الخوف، خرج عليه فضل. فإن هو لم يخف عليه- ولا يكون ذلك في سبيل التوكّل- فهو في طباع الحمار وفي جهله. والذي أوجب له الخمول ليؤدّيه إلى سلامة المال له، قد أعطاه من الجهل ما لا يكون معه إلّا مثل مقدار لذة البهيمة في أكل الخبط .

وإن هو ابتاع فرّه الدواب، وفرّه الخدم والجواري، واتخذ الدار الجيّدة، والطعام الطيّب والثّوب الليّن وأشباه ذلك، فقد دلّ على ماله. ومن كان كذلك ثمّ ظهرت له ضيعة فاشية، أو تجارة مربحة، يحتمل مثل ذلك الذي يظهر من نفقته. وإلا فإنّه سيوجد في اللّصوص عند أوّل من يقطع عليه، أو مكابرة تكون، أو تعب يؤخذ لأهله المال العظيم.

ولو عنى بقوله الخمول وصحة البدن والمال، فذهب إلى مقدار من المال مقبولا ولكن ما لمن كان ماله لا يجاوز هذا المقدار يتهيّأ الخمول.

****

(سلطان الحظ على الأثار الأدبية)

وكما تحظى بعض الأشعار وبعض الأمثال، وبعض الألفاظ دون غيرها، ودون ما يجري مجراها أو يكون أرفع منها.

قالوا: وذلك موجود في المرزوق والمحروم، وفي المحارف والذي تجوز

عليه الصّدقة. وكم من حاذق بصناعته، وكثير الجولان في تجارته، وقد بلغ فرغانة «١» مرّة، والأندلس مرة، ونقّب في البلاد، وربع في الآفاق «٢» ، ومن حاذق يشاور ولا يستعمل، ثمّ لا تجدهما يستبينان، من سوء الحال وكثرة الدّين. ومن صاحب حرب منكوب، وهو اللّيث على براثنه، مع تمام العزيمة وشدّة الشّكيمة، ونفاذ البصيرة، ومع المعرفة بالمكيدة والصّبر الدّائم على الشدّة.

وبعد؛ فكم من بيت شعر قد سار، وأجود منه مقيم في بطون الدّفاتر، لا تزيده الأيّام إلّا خمولا، كما لا تزيد الذي دونه إلّا شهرة ورفعة. وكم من مثل قد طار به الحظّ حتّى عرفته الإماء، ورواه الصّبيان والنّساء.

****

(مبالغة الإنسان في تقدير ما ينسب إليه)

وليس في الأرض إنسان إلّا وهو يطرب من صوت نفسه، ويعتريه الغلط في شعره وفي ولده. إلّا أنّ الناس في ذلك على طبقات من الغلط: فمنهم الغرق «٨» المغمور، ومنهم من قد نال من الصواب ونال من الخطأ، ومنهم من يكون خطؤه مستورا لكثرة صوابه، فما أحسن حاله ما لم يمتحن بالكشف. ولذلك احتاج العاقل في العجب بولده، وفي استحسان كتبه وشعره، من التحفظ والتوقّي، ومن إعادة النظر والتّهمة إلى أضعاف ما يحتاج إليه في سائر ذلك.

****

(قصة في وفاء الكلب)

وأنشد أبو الحسن بن خالويه عن أبي عبيدة لبعض الشعراء:

يعرّد عنه جاره وشقيقه ‌‌ وينبش عنه كلبه وهو ضاربه

قال أبو عبيدة: قيل ذلك لأنّ رجلا خرج إلى الجبّان ينتظر ركابه فأتبعه كلب كان له، فضرب الكلب وطرده، وكره أن يتبعه، ورماه بحجر، فأبى الكلب إلّا أن يذهب معه، فلما صار إلى الموضع الذي يريد فيه الانتظار، ربض الكلب قريبا منه، فبينا هو كذلك إذ أتاه أعداء له يطلبونه بطائلة لهم عنده، وكان معه جار له وأخوه دنيا، فأسلماه وهربا عنه، فجرح جراحات ورمي به في بئر غير بعيدة القعر، ثم حثوا عليه من التراب حتّى غطّى رأسه ثم كمّم فوق رأسه منه، والكلب في ذلك يزجم ويهرّ، فلمّا انصرفوا أتى رأس البئر؛ فما زال يعوي وينبث عنه ويحثو التّراب بيده ويكشف عن رأسه حتى أظهر رأسه، فتنفّس وردّت إليه الرّوح؛ وقد كاد يموت ولم يبق منه إلّا حشاشة، فبينا هو كذلك إذ مرّ ناس فأنكروا مكان الكلب ورأوه كأنّه يحفر عن قبر، فنظروا فإذا هم بالرّجل في تلك الحال، فاستشالوه فأخرجوه حيّا، وحملوه حتّى أدّوه إلى أهله، فزعم أنّ ذلك الموضع يدعى ببئر الكلب. وهو متيامن عن النّجف.

وهذا العمل يدل على وفاء طبيعي وإلف غريزي ومحاماة شديدة، وعلى معرفة وصبر، وعلى كرم وشكر، وعلى غناء عجيب ومنفعة تفوق المنافع، لأنّ ذلك كلّه كان من غير تكلف ولا تصنّع.

****

(مثل)

والمثل السائر: «إنما فلان كبش من الكباش» . وإذا هجوه قالوا: «إنما هو تيس من التيوس» إذا أرادوا النتن أيضا. فإذا أرادوا الغاية في الغباوة قالوا: «ما هو إلا تيس في سفينة!» .

****

(طول ذماء* الضب والكلب والأفعي)

وتقول العرب: «الضبّ أطول شيء ذماء»، والكلب أعجب في ذلك منه.

وإنّما عجبوا من الضّبّ، لأنّه يغبر ليلته مذبوحا مفريّ الأوداج، ساكن الحركة، حتّى إذا قرّب من النار تحرّك. كأنّهم يظنّون أنّه قد كان حيا، وإن كان في العين ميّتا.

والأفعى تبقى أيّاما تتحرّك.

*الذماء: بقية الروح.

****

(أحجيّة في الكلب)

وممّا يحاجي به النّاس بعضهم بعضا أن يقولوا: أتعرفون شيئا إذا قام كان أقصر منه إذا قعد؟ يريدون الكلب، لأنّ الكلب قعوده إقعاؤه، وهو إذا أقعى كان أرفع لسمكه، وأرفع في الهواء طولا منه إذا قام. وقال عمر بن لجأ:

عليه حنوا قتب مستقدم   مقع كإقعاء الكليب المعصم

ويقال أقعى الكلب إقعاء، ولا يقال قعد ولا جلس، وفي الحديث: «أنّه نهى أن يقعي أحدهم في الصلاة إقعاء الكلب».

****

(معرفة عمر الكلب وهرمه)

قال صاحب الكلب: يعرف فتاء الكلب وهرمه بالأسنان، فإذا كانت سوداء كانت دليلا على كبره، وإذا كانت بيضا حادّة دلّت على الفتاء والحداثة. وقال: أسنان الذّكر أكثر.

****

(المعرفة)

وربّ معرفة تكون نبيلة وأخرى لا تكون في طريق النّبالة. وإن كانت المعارف كلّها مفصّلة مقدّرة، إلّا أنّها في منازل ومراتب. وليس في الأرض معرفة بدقيق ولا جليل وهي في نفسها شريفة كريمة.

والمعرفـة كلّهـا بصـر، والجهـل كلـه عمـى، والعمـى كلّـه شـين ونقـص، والاستبانة كلّها خير وفصل.

****

(أمثال)

وتقول العرب: «العير أوقى لدمه» وهو يضرب للموصوف بالحذر؛ وذلك أنه ليس شيء من الصي يحذر حذر البعير إذا طلب.

وقـالوا: «الجحـشَ إذا فاتتـك الأعيـار» والجحـش هـو ولـد الحمـار قبـل أن يفطم، ويضرب المثل لمن يطلب الأمر الكبير فيفوته، فيقال له: اطلب ما دون ذلك.

وقالوا: «أصبر من عير أبي سيّارة»؛ لأنّه كان دفع بأهل الموسم على ذلك الحمار أربعين عاما.

****

(استطراد لغوي)

ويقال بصبص الجرو وفقّح وجصّص، إذا فتح عينيه شيئا، وصأصأ إذا لم يفتح عينيه. ولذلك قال عبيد الله بن جحش والسّكران بن عمرو للمسلمين ببلاد الحبشة: «إنّا فقّحنا وصأصأتم».

****

(كلب الرفقة)

وقال صاحب الديك: حدّث الأصمعيّ قال: أخبرني العلاء بن أسلم قال:

أردت الخروج إلى مكّة المعظّمة، شرّفها الله تعالى، فجاءني هشام بن عقبة- وهو أخو ذي الرّمة- فقال لي: يا ابن أخي، إنّك تريد سفرا يحضر الشّيطان فيه حضورا لا يحضره في غيره، فاتّق الله وصلّ الصّلوات لوقتها فإنّك مصلّيها لا محالة، فصلّها وهي تنفعك، وأعلم أنّ لكلّ رفقة كلبا

ينبح عليهم، فإن كان نهب شركوه فيه، وإن كان عار تقلّده دونهم فلا تكن كلب الرّفقة.

****

(فصل)

وليس في الأرض إنسان يذبح نفسه أو يختنق أو يتردّى في بئر، أو يرمي نفسه من حالق، إلّا من خوف المثلة أو التعذيب أو التعيير وتقريع الشامتين، أو لأنّ به وجعا شديدا فيحرّك عليه المرّة فيحمى لذلك بدنه ويسخن جوفه، فيطير من ذلك شيء إلى دماغه أو قلبه، فيوهمه ذلك أنّ الصّواب في قتل نفسه، وأنّ ذلك هو الرّاحة، وأنّ الحزم مع الرّاحة.

****

(التشاؤم بالغراب)

ومن أجل تشاؤمهم بالغراب اشتقّوا من اسمه الغربة، والاغتراب،والغريب.

وليس في الأرض بارح ولا نطيح ، ولا قعيد، ولا أعضب، ولا شيء مما يتشاءمون به إلّا والغراب عندهم أنكد منه، يرون أنه صياحه أكثر أخبارًا، وأنّ الزّجر فيه أعمّ.

****

(خداع الغراب للديك)

وفي كثير من الروايات من أحاديث العرب، أنّ الدّيك كان نديما للغراب، وأنّهما شربا الخمر عند خمّار ولم يعطياه شيئا، وذهب الغراب ليأتيه بالثّمن حين شرب، ورهن الدّيك، فخاس به، فبقي محبوسًا.

(غراب وحمامة نوح)

وأنّ نوحا صلّى الله عليه وسلم حين بقي في اللّجّة أيّاما بعث الغراب، فوقع على جيفة ولم يرجع، ثمّ بعث الحمامة لتنظر هل ترى في الأرض موضعا

يكون للسفينة مرفأ، واستجعلت على نوح الطّوق الذي في عنقها، فرشاها بذلك- أي فجعل ذلك جعلا لها.

وفي جميع ذلك يقول أميّة بن أبي الصّلت:

بآية قام ينطق كلّ شيء وخان أمانة الدّيك الغراب

يقول: حين تركه في أيديهم وذهب وتركه.

والعامّة تضرب به المثل وتقول: ما هو إلّا غراب نوح.

****

(علة قلة البيض إذا كثر الدجاج)

وسألت عن السّبب الذي صار له الدّجاج إذا كثرن قلّ بيضهنّ وفراخهنّ، فزعموا أنّها في طباع النّخل، فإن النّخلة إذا زحمت أختها، بل إذا مسّ طرف سعفها طرف سعف الأخرى وجاورتها، وضيّقت عليها في الهواء، وكذلك أطراف العروق في الأرض- كان ذلك كربا عليها وغمّا.

قالوا: فتدانيها وتضاغطها، وأنفاسها وأنفاس أبدانها، يحدث لها فسادا.

قال: وكما أنّ الحمام إذا كثرت في الكنّة والشريحة احتاجت إلى شمس وإلى ماء تغتسل فيه في بعض الأحايين، وإلى أن تكون بيوتها مكنوسة في بعض الأوقات ومرشوشة، وإلّا لم يكن لها كبير بيض. على أنّه إذا كان لها في الصميمين الدّفء في الشتاء والكنّ في الصيف، لم تغادر الدّهر كلّه أن تبيض.

****

(القول في عين الديك)

ومن خصال الدّيك المحمودة قولهم في الشراب: «أصفى من عين الدّيك» وإذا وصفوا عين الحمام الفقيع بالحمرة، أو عين الجراد قالوا: كأنّها عين الدّيك. وإذا قالوا: «أصفى من عين الغراب» فإنّما يريدون حدّته ونفاذ البصر.

****

(وصف الماء الصافي)

وإذا وصفوا الماء والشّراب بالصّافي قالوا، كأنّه الدّمع، وكأنّه ماء قطر، وكأنّه ماء مفصل، وكأنّه لعاب الجندب.

****

انتهى ما اخترته من لطائف المجلد الثاني ويليه لطائف من المجلد الثالث.

****

وقال أبو الدّرداء: إنّي لأجمّ نفسي ببعض الباطل، كراهة أن أحمل عليها من الحق ما يملّها

(جملة من نوادر الشعر)

وسنذكر من نوادر الشّعر جملة، فإن نشطت لحفظها فاحفظها؛ فإنّها من أشعار المذاكرة. قال الثّقفي:

من كان ذا عضد يدرك ظلامته   إن الذّليل الّذي ليست له عضد

تنبو يداه إذا ما قلّ ناصره   ويأنف الضّيم إن أثرى له عدد

وقال عبده بن الطّبيب:

ربّ حبانا بأموال مخوّلة   وكلّ شيء حباه الله تخويل

والمرء ساع لأمر ليس يدركه   والعيش شحّ وإشفاق وتأميل

وكان عمر بن الخطّاب- رضي الله تعالى عنه- يردّد هذا النصف الآخر، ويعجب من جودة ما قسم.

وقال آخر :

وحفظك مالا قد عنيت بجمعه   أشدّ من الجمع الذي أنت طالبه

وقال أبو الأسود الدؤلي:

المرء يسعى ثمّ يدرك مجده حتّى يزيّن بالّذي لم يفعل

وترى الشقيّ إذا تكامل غيّه يرمى ويقذف بالّذي لم يعمل

وقال أكثم بن صيفيّ:

نربّى ويهلك آباؤنا وبينا نربّي بنينا فنينا

وقال آخر:

يا نفس خوضي بحار العلم أو غوصي فالنّاس من بين معموم ومخصوص

لا شيء في هذه الدنيا يحاط به إلّا إحاطة منقوص بمنقوص

وقال الأخطل:

شمس العداوة حتّى يستفاد لهم وأعظم النّاس أحلاما إذا قدروا

وقال أبو سلمى:

لابدّ للسّودد من أرماح ومن سفيه دائم النّباح

ومن عديد يتّقى بالرّاح

وقال إياس بن قتادة، في الأحنف بن قيس:

وإنّ من السّادات من لو أطعته دعاك إلى نار يفور سعيرها

وقال حميضة بن حذيفة:

أيظلمهم قسرا فتبّا لسعيه وكل مطاع لا أبالك يظلم

وقال آخر:

فأصبحت بعد الحلم في الحيّ ظالما تخمّط فيهم والمسوّد يظلم

وقال عبد العزيز بن زرارة الكلابي:

وما لبّ اللّبيب بغير حظّ بأغنى في المعيشة من فتيل

رأيت الحظّ يستر كلّ عيب وهيهات الحظوظ من العقول

وقال بعض القدماء :

ألم تر حوشبا أضحى يبنّي قصورا نفعها لبني بقيله

يؤمّل أن يعمّر عمر نوح وأمر الله يحدث كلّ ليله

وقال ابن عبّاس بعد ما ذهب بصره:

إن يأخذ الله من عينيّ نورهما ففي لساني وقلبي منهما نور

قلبي ذكيّ وعقلي غير ذي دخل وفي فمي صارم كالسّيف مأثور

****

(قصار القصائد)

وإن أحببت أن تروي من قصار القصائد شعرا لم يسمع بمثله، فالتمس ذلك في قصار قصائد الفرزدق؛ فإنك لم تر شاعرا قطّ يجمع التّجويد في القصار والطّوال غيره.

وقد قيل للكميت: إن النّاس يزعمون أنّك لا تقدر على القصار! قال: من قال الطّوال فهو على القصار أقدر.

هذا الكلام يخرج في ظاهر الرّأي والظّن، ولم نجد ذلك عند التّحصيل على ما قال.

وقيل لعقيل بن علّفة: لم لا تطيل الهجاء؟ قال: «يكفيك من القلادة ما أحاط بالعنق».

****

(السواد والبياض في البادية)

الأصمعيّ قال: أخبرني جوسق قال: كان يقال بالبدو: «إذا ظهر البياض قلّ السّواد، وإذا ظهر السّواد قلّ البياض» . قال الأصمعيّ: يعني بالسّواد التّمر، وبالبياض اللّبن والأقط، يقول: إذا كانت السّنة مجدبة كثر التّمر وقلّ

اللّبن والأقط، وقال: إذا كان العام خصيبا ظهر في صدقة الفطر البياض يعني الإقط وإذا كان جدبيا ظهر السّواد، يعني التّمر.

وتقول الفرس: إذا زخرت الأودية بالماء كثر التّمر، وإذا اشتدّت الرّياح كثر الحبّ

****

(قصة العنبري الأسير)

الأصمعيّ قال: أخبرني شيخ من بني العنبر قال: أسر بنو شيبان رجلا من

بني العنبر، قال: دعوني حتى أرسل إلى أهلي ليفدوني. قالوا: على ألّا تكلّم الرّسول إلّا بين أيدينا، قال: نعم، قال: فقال للرسول: ائت أهلي فقل: إنّ الشّجر قد أورق.

وقل: إنّ النّساء قد اشتكت وخرزت القرب، ثمّ قال له: أتعقل؟ قال: نعم. قال: إن كنت تعقل فما هذا؟ قال: الليل، قال: أراك تعقل انطلق إلى أهلي فقل لهم: عرّوا جملي الأصهب، واركبوا ناقتي الحمراء، وسلوا حارثًا عن أمري- وكان حارث صديقا له- فذهب الرّسول فأخبرهم.

فدعوا حارثا فقصّ عليه الرّسول القصة، فقال أمّا قوله: «إنّ الشّجر قد أورق» فقد تسلّح القوم. وأمّا قوله: «إن النساء قد اشتكت وخرزت القرب» فيقول: قد اتخذت الشّكا وخرزت القرب للغزو. وأما قوله: «هذا الليل» فإنّه يقول: أتاكم جيش مثل الليل، وأمّا قوله: «عرّوا جملي الأصهب» فيقول: ارتحلوا عن الصّمّان. وأما قوله: «اركبوا ناقتي الحمراء» فيقول: انزلوا الدّهناء، وكان القوم قد تهيّؤوا لغزوهم، فخافوا أن ينذرهم، فأنذرهم وهم لا يشعرون، فجاء القوم يطلبونهم فلم يجدوهم.

****

(تفسير كلمة لعمر بن الخطاب)

قال: وسألت عن قول عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه لأبي مريم الحنفي:

والله لأنا أشدّ بغضا لك من الأرض للدّم! قال: لأنّ الدّم الجاري من كلّ شيء بيّن، لا يغيض في الأرض؛ ومتى جفّ وتجلّب ففرقته رأيت مكانه أبيض.

إلّا إنّ صاحب المنطق قال في كتابه في الحيوان: كذلك الدّماء، إلّا دم البعير.

****

(خصال الحرم)

فمن خصاله: أنّ الذّئب يصيد الظّبي ويريغه ويعارضه، فإذا دخل الحرم كفّ عنه.

ومن خصاله: أنّه لا يسقط على الكعبة حمام إلّا وهو عليل. يعرف ذلك متى امتحن وتعرّفت حاله، ولا يسقط عليها ما دام صحيحا.

ومن خصاله: أنّه إذا حاذى أعلى الكعبة عرقة من الطّير كاليمام وغيره، انفرقت فرقتين ولم يعلها طائر منها.

ومن خصاله: أنّه إذا أصاب المطر الباب الذي من شقّ العراق، كان الخصب والمطر في تلك السّنة في شقّ العراق، وإذا أصاب الذي من شقّ الشّام كان الخصب والمطر في تلك السّنة في شقّ الشام. وإذا عمّ جوانب البيت كان المطر والخصب عامّا في سائر البلدان.

ومن خصال الحرم: أنّ حصى الجمار يرمى بها في ذلك المرمى، مذ يوم حجّ النّاس البيت على طوال الدّهر، ثمّ كأنّه على مقدار واحد. ولولا موضع الآية والعلامة والأعجوبة التي فيها، لقد كان ذلك كالجبال. هذا من غير أن تكسحه السّيول، ويأخذ منه النّاس.

ومن سنّتهم : أنّ كلّ من علا الكعبة من العبيد فهو حرّ، لا يرون الملك على من علاها، ولا يجمعون بين عزّ علوّها وذلة الملك.

وبمكة رجال من الصّلحاء لم يدخلوا الكعبة قطّ.

وكانوا في الجاهليّة لا يبنون بيتا مربّعا؛ تعظيما للكعبة. والعرب تسمّي كلّ بيت مربّع كعبة، ومنه: كعبة نجران.

وكان أوّل من بنى بيتا مربّعا حميد بن زهير، أحد بني أسد بن عبد العزّى.

ثمّ البركة والشفاء الذي يجده من شرب من ماء زمزم على وجه الدهر وكثرة من يقيم عليه يجد فيه الشفاء، بعد أن لم يدع في الأرض حمّة إلّا أتاها، وأقام عندها، وشرب منها، واستنقع فيها.

هذا مع شأن الفيل، والطّير الأبابيل، والحجارة السّجّيل، وأنّها لم تزل أمنا ولقاحا، لا تؤدّي إتاوة، ولا تدين للملوك، ولذلك سمّي البيت العتيق؛ لأنّه لم يزل حرّا لم يملكه أحد.

وقال حرب بن أميّة في ذلك:

أبا مطر هلمّ إلى صلاح فتكفيك النّدامى من قريش

فتأمن وسطهم وتعيش فيهم أبا مطر هديت لخير عيش

وتنزل بلدة عزّت قديما وتأمن أن يزروك ربّ جيش

وقال الله عزّ وجلّ:{ وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْناً وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقامِ إِبْراهِيمَ مُصَلًّى}

وقال عزّ وجلّ، حكاية عن إبراهيم: { رَبَّنا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَراتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ}

****

(خصال المدينة)

والمدينة هي طيبة، ولطيبها قيل تلفظ خبثها وينصع طيبها. وفي ريح ترابها وبنّة تربتها، وعرف ترابها ونسيم هوائها، والنعمة التي توجد في سككها وفي حيطانها- دليل على أنّها جعلت آية حين جعلت حرما.

وكلّ من خرج من منزل مطيّب إلى استنشاق ريح الهواء والتّربة في كل بلدة فإنّه لابدّ عند الاستنشاق والتثبّت من أن يجدها منتنة. فذلك على طبقات من شأن البلدان، إلّا ما كان في مدينة الرّسول، رسول الله صلى الله عليه وسلم، فللصّيّاح والعطر والبخور والنضوح، من الرائحة الطيبة- إذا كان فيها- أضعاف ما يوجد له في غيرها من البلدان، وإن كان الصّيّاح أجود، والعطر أفخر، والبخور أثمن.

****

(استطراد لغوي)

ويقال: هدر الحمام يهدر. قال: ويقال في الحمام الوحشي من القماريّ والفواخت والدّباسي وما أشبه ذلك: قد هدل يهدل هديلا. فإذا طرّب قيل غرّد يغرد تغريدا. والتغريد يكون للحمام والإنسان، وأصله من الطير.

وأمّا أصحابنا فيقولون: إنّ الجمل يهدر، ولا يكون باللام، والحمام يهدل وربّما كان بالراء.

وبعضهم يزعم أنّ الهديل من أسماء الحمام الذّكر. قال الرّاعي واسمه عبيد بن الحصين:

كهداهد كسر الرّماة جناحه يدعو بقارعة الطّريق هديلا

****

(استطراد لغوي)

وأصل الخضرة إنّما هو لون الرّيحان والبقول، ثم جعلوا بعد الحديد أخضر، والسماء خضراء، حتّى سمّوا بذلك الكحل واللّيل.

قال الشّمّاخ بن ضرار:

ورحن رواحا من زَرود فنازعت   زبالة جلبابا من الليل أخضرا

وقال الله عزّ وجلّ: {وَمِنْ دُونِهِما جَنَّتانِ، فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ مُدْهامَّتانِ}

قال: خضراوان من الرّي سوداوان.

ويقال: إن العراق إنّما سمّي سوادا بلون السّعف الذي في النّخل، ومائه.

والأسودان: الماء والتمر. والأبيضان: الماء واللبن. والماء أسود إذا كان مع التّمر، وأبيض إذا كان مع اللّبن.

ويقولون: سود البطون وحمر الكلى، ويقولون: سود الأكباد يريدون العداوة، وأن الأحقاد قد أحرقت أكبادهم، ويقال للحافر أسود البطن؛ لأن الحافر لا يكون في بطونها شحم.

ويقولون: نحن بخير ما رأينا سواد فلان بين أظهرنا، يريدون شخصه. وقالوا: بل يريدون ظلّه.

وإذا قالوا: فلان أخضر القفا، فإنما يعنون به أنّه قد ولدته سوداء.

وإذا قالوا: فلان أخضر البطن، فإنما يريدون أنّه حائك، لأنّ الحائك بطنه لطول التزاقه بالخشبة التي يطوى عليها الثّوب يسودّ.

وكان سبب عداوة العروضي لإبراهيم النّظام، أنّه كان يسمّيه الأخضر البطن، والأسود البطن؛ فكان يكشف بطنه للناس- يريد بذلك تكذيب أبي إسحاق- حتى قال له إسماعيل بن غزوان: إنّما يريد أنّك من أبناء الحاكة! فعاداه لذلك.

فإذا قيل أخضر النّواجذ، فإنما يريدون أنّه من أهل القرى، ممّن يأكل الكرّاث والبصل.

****

(الألفاظ المثناة)

ويقولـــون فـــي شـــبيه بالبـــاب الأوّل: الأحمـــران: الـــذهب والزعفـــران، والأبيضان: الماء واللّبن، والأسودان: الماء والتمر.

ويقولـون: أهلـك النّسـاء الأحمـران: الـذّهب والزّعفـران، وأهلـك النّـاس الأحامر: الذهب، والزعفران، واللّحم، والخمر.

والجديدان: اللّيل والنهار، وهما الملوان.

والعصـر: الـدّهر، والعصـران: صـلاة الفجـر وصـلاة العشـي، والعصـران: الغداة والعشيّ.

ويقال: «البائعان بالخيـار» وإنّمـا هـو البـائع والمشـتري، فـدخل المبتـاع فـي البائع.

وقال الله عزّ وجلّ: {وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ واحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ}

دخلـت الأمّ فـي اسـم الأبـوّة، كـأنهم يجمعـون علـى أنبـه الاسـمين وكقـولهم: ثبيـرين*، والبصـرتين*. ولـيس ذلـك بالواجـب؛ وقـد قـالوا: سـيرة العمـرين، وأبو بكر فوق عمر، قال الفرزدق:

أخذنا بآفاق السّماء عليكم   لنا قمراها والنّجوم الطّوالع

وأمّا قول ذي الرّمّة:

وليل كجلباب العروس ادّرعته   بأربعة والشخص في العين واحد

فإنه ليس يريد لون الجلباب، ولكنّه يريد سبوغه.

*ثبيران: هما ثبير وحراء وهما جبلان متقابلان من جبال مكة وفي ثانيهما الغار المشهور.

**البصرتان: البصرة والكوفة والأولى أقدم من الثانية.

****

(دلالة الدقيق من الخلق على الله)

ثمّ اعلم أنّ الجبل ليس بأدلّ على الله من الحصاة، ولا الفلك المشتمل على عالمنا هذا بأدلّ على الله من بدن الإنسان. وأنّ صغير ذلك ودقيقه كعظيمه وجليله.

ولم تفترق الأمور في حقائقها، وإنما افترق المفكّرون فيها، ومن أهمل النّظر، وأغفل مواضع الفرق، وفصول الحدود.

فمن قبل ترك النّظر، ومن قبل قطع النّظر، ومن قبل النظر من غير وجه النّظر، ومن قبل الإخلال ببعض المقدّمات، ومن قبل ابتداء النّظر من جهة النّظر، واستتمام النظر مع انتظام المقدّمات- اختلفوا.

فهذه الخصال هي جمّاع هذا الباب، إلّا ما لم نذكره من باب العجز والنقص، فإن الذي امتنع من المعرفة من قبل النّقصان الذي في الخلقة باب على حدة.

وإنما ذكرنا باب الخطأ والصّواب، والتّقصير والتكميل. فإياك أن تسيء الظّنّ بشيء من الحيوان لاضطراب الخلق، ولتفاوت التركيب، ولأنّه مشنوء في العين، أو لأنّه قليل النّفع والرّدّ؛ فإنّ الذي تظّنّ أنّه أقلّها نفعا لعله أن يكون أكثرها ردّا، فإلّا يكن ذلك من جهة عاجل أمر الدنيا، كان ذلك في آجل أمر الدين. وثواب الدين وعقابه باقيان، ومنافع الدنيا فانية زائلة؛ فلذلك قدّمت الآخرة على الأولى.

فإذا رأيت شيئا من الحيوان بعيدا من المعاونة، وجاهلا بسبب المكانفة، أو كان مما يشتدّ ضرره، وتشتدّ الحراسة منه، كذوات الأنياب من الحيّات والذئاب وذوات المخالب من الأسد والنّمور، وذوات الإبر والشعر من العقارب والدّبر، فاعلم أنّ مواقع منافعها من جهة الامتحان، والبلوى. ومن جهة ما أعد الله عزّ وجلّ للصابرين، ولمن فهم عنه، ولمن علم أنّ الاختيار والاختبار لا يكونان والدنيا كلّها شرّ صرف أو خير محض؛ فإنّ ذلك لا يكون إلّا بالمزواجة بين المكروه والمحبوب، والمؤلم والملذّ، والمحقّر والمعظّم، والمأمون والمخوف. فإذا كان الحظّ الأوفر في الاختبار

والاختيار. وبهما يتوسل إلى ولاية الله عزّ وجلّ، وآبد كرامته، وكان ذلك إنما يكون في الدار الممزوجة من الخير والشرّ، والمشتركة والمركّبة بالنّفع والضر، المشوبة باليسر والعسر- فليعلم موضع النّفع في خلق العقرب، ومكان الصّنع في خلق الحيّة، فلا يحقرنّ الجرجس والفراش والذرّ والذّبان ولتقف حتّى تتفكّر في الباب الذي رميت إليك بجملته، فإنّك ستكثر حمد الله عزّ وجلّ على خلق الهمج والحشرات وذوات السّموم والأنياب، كما تحمده على خلق الأغذية من الماء والنّسيم.

فإن أردت الزّراية والتّحقير، والعداوة والتّصغير، فاصرف ذلك كلّه إلى الجنّ والإنس، واحقر منهم كلّ من عمل عملا من جهة الاختيار يستوجب به الاحتقار، ويستحقّ به غاية المقت من وجه، والتصغير من وجه.

فإن أنت أبغضت من جهة الطبيعة، واستثقلت من جهة الفطرة ضربين من الحيوان: ضربا يقتلك بسمه، وضربا يقتلك بشدة أسره لم تلم. إلّا أنّ عليك أن تعلم أنّ خالقهما لم يخلقهما لأذاك، وإنما خلقهما لتصبر على أذاهما، ولأن تنال بالصّبر الدرجة التي يستحيل أن تنالها إلّا بالصّبر. والصبر لا يكون إلّا على حالّ مكروه. فسواء عليك أكان المكروه سبعا وثّابا، أو كان مرضا قاتلا، وعلى أنّك لا تدري لعلّ النزع ، والعلز والحشرجة، أن يكون أشدّ من لدغ حيّة، وضغمة سبع. فإلّا تكن له حرقة كحرق النار وألم كألم الدّهق ، فلعلّ هناك من الكرب ما يكون موقعه من النّفس فوق ذلك.

وقد عمنا أنّ النّاس يسمّون الانتظار لوقع السيف على صليف العنق جهد البلاء؛ وليس ذلك الجهد من شكل لذع النار، ولا من شكل ألم الضرب بالعصا.

فافهم فهمك الله مواقع النفع كما يعرفها أهل الحكمة وأصحاب الأحساس الصحيحة.

ولا تذهب في الأمور مذهب العامّة، وقد جعلك الله تعالى من الخاصة، فإنك مسؤول عن هذه الفضيلة، لأنّها لم تجعل لعبا، ولم تترك هملا. واصرف بغضك إلى مريد ظلمك، لا يراقب فيك إلّا ولا ذمّة، ولا مودة، ولا كتابا ولا سنّة. وكلما زادك الله عزّ وجلّ نعمة ازداد عليك حنقا، ولك

بغضا. وفرّ كلّ الفرار واهرب كلّ الهرب، واحترس كلّ الاحتراس، ممن لا يراقب الله عزّ وجلّ؛ فإنه لا يخلو من أحد أمرين، إمّا أن يكون لا يعرف ربّه مع ظهور آياته ودلالاته، وسبوغ آلائه، وتتابع نعمائه، ومع برهانات رسله، وبيان كتبه؛ وإمّا أن يكون به عارفا وبدينه موقنا، وعليه مجترئا، وبحرماته مستخفّا. فإن كان بحقّه جاهلا فهو بحقّك أجهل، وله أنكر. وإن كان به عارفا وعليه مجترئا فهو عليك أجرأ، ولحقوقك أضيع ولأياديك أكفر.

فأمّا خلق البعوضة والنّملة والفراشة والذّرّة والذّبّان والجعلان، واليعاسيب والجراد- فإياك أن تتهاون بشأن هذا الجند، وتستخف بالآلة التي في هذا الذّرء؛ فربّت أمة أجلاها عن بلادها النمل، ونقلها عن مساقط رؤوسها الذّرّ، وأهلكت بالفأر، وجردت بالجراد، وعذّبت بالبعوض، وأفسد عيشها الذّبّان، فهي جند إن أراد الله عزّ وجلّ أن يهلك بها قوما بعد طغيانهم وتجبّرهم وعتوّهم؛ ليعرفوا أو ليعرف بهم أنّ كثير أمرهم، لا يقوم بالقليل من أمر الله عزّ وجلّ. وفيها بعد معتبر لمن اعتبر، وموعظة لمن فكّر، وصلاح لمن استبصر، وبلوى ومحنة، وعذاب ونقمة، وحجّة صادقة، وآية واضحة، وسبب إلى الصّبر والفكرة. وهما جماع الخير في باب المعرفة والاستبانة، وفي باب الأجر وعظم المثوبة.

****

(أمثال في الفراش والذباب)

ويقال في موضع الذمّ والهجاء: «ما هم إلّا فراش نار وذبّان طمع». ويقال:

«أطيش من فراشة»، «وأزهى من ذبّان».

وقال الشاعر:

كأنّ بني ذويبة رهط سلمى   فراش حول نار يصطلينا

يطفن بحرّها ويقعن فيها   ولا يدرين ماذا يتّقينا

والعرب تجعل الفراش والنّحل والزّنابير والدّبر كلّها من الذّبان.

وأما قولهم:

«أزهى من ذباب» فلأن الذّباب يسقط على أنف الملك الجبّار، وعلى موق عينيه ليأكله، ثم يطرده فلا ينطرد.

****

(أمثال في الأنف)

والأنف هو النّخوة وموضع التّجبّر.

وكان من شأن البطارقة وقوّاد الملوك إذا أنفوا من شيء أن ينخروا كما ينخر الثّور عند الذّبح، والبرذون عند النّشاط.

والأنف هو موضع الخنزوانة والنّعرة.

والأصيد: الملك الذي تراه أبدا من كبره مائل الوجه. وشبّه بالأسد فقيل أصيد؛ لأنّ عنق الأسد من عظم واحد، فهو لا يلتفت إلّا بكلّه، فلذلك يقال للمتكبّر: «إنّما أنفه في أسلوب»، ويقال: أرغم الله أنفه وأذلّ معطسه! ويقال: ستفعل ذلك وأنفك راغم! والرّغام: التّراب. ولولا كذا وكذا لهشّمت أنفك. فإنما يخصّون بذلك الأنف؛ لأنّ الكبر إليه يضاف.

****

(مميزات خلقيّة لبعض الحيوان)

وليس في الأرض ذباب إلّا وهو أقرح ، ولا في الأرض بعير إلّا وهو أعلم ، كما أنّه ليس في الأرض ثور إلّا وهو أفطس.

وفي أنّ كلّ بعير أعلم يقول عنترة:

وحليل غانية تركت مجدّلا تمكو فريصته كشدق الأعلم

كأنّه قال: كشدق البعير؛ إذ كان كله بعير أعلم.

والشعراء يشبّهون الضربة بشدق البعير، ولذلك قال الشاعر :

كم ضربة لك تحكي فا قراسية   من المصاعب في أشداقه شنع

وإذا قيل الأعلم، علم أنّه البعير، كما أنّه إذا قيل الأقرح علم أنّه الذّبّان، قال الشاعر:

ولأنت أطيش، حين تغدو سادرا   حذر الطعان، من القدوح الأقرح

يعني الذبّان لأنه أقرح، ولأنّه أبدا يحكّ بإحدى ذراعيه على الأخرى كأنّه يقدح بعودي مرخ وعفار، أو عرجون، أو غير ذلك مما يقدح به.

****

(إغارة الشعراء على المعاني)

ولا يعلم في الأرض شاعر تقدّم في تشبيه مصيب تامّ، وفي معنى غريب عجيب، أو في معنى شريف كريم، أو في بديع مخترع، إلّا وكلّ من جاء من الشعراء من بعده أو معه، إن هو لم يعد على لفظه فيسرق بعضه أو يدعيه بأسره، فإنّه لا يدع أن يستعين بالمعنى، ويجعل نفسه شريكا فيه؛ كالمعنى الذي تتنازعه الشعراء فتختلف ألفاظهم، وأعاريض أشعارهم، ولا يكون أحد منهم أحقّ بذلك المعنى من صاحبه. أو لعلّه أن يجحد أنّه سمع بذلك المعنى قطّ، وقال إنّه خطر على بالي من غير سماع، كما خطر على بال الأوّل. هذا إذا قرّعوه به. إلّا ما كان من عنترة في صفة الذباب؛ فإنه وصفه فأجاد صفته فتحامى معناه جميع الشعراء فلم يعرض له أحد منهم. ولقد عرض له بعض المحدثين ممن كان يحسّن القول، فبلغ من استكراهه لذلك المعنى، ومن اضطرابه فيه، أنّه صار دليلا على سوء طبعه في الشعر. قال عنترة:

جادت عليها كلّ عين ثرّة   فتركن كلّ حديقة كالدّرهم

فترى الذّباب بها يغنّي وحده   هزجا كفعل الشّارب المترنّم

غردا يحكّ ذراعه بذراعه   فعل المكبّ على الزّناد الأجذم

قال: يريد فعل الأقطع المكبّ على الزّناد. والأجذم: المقطوع اليدين. فوصف الذّباب إذا كان واقعا ثمّ حكّ إحدى يديه بالأخرى، فشبّهه عند ذلك برجل مقطوع اليدين، يقدح بعودين. ومتى سقط الذّباب فهو يفعل ذلك.

ولم أسمع في هذا المعنى بشعر أرضاه غير شعر عنترة.

****

(طنين الذّباب)

والعرب تسمّي طنين الذّبّان والبعوض غناء. وقال الأخطل في صفة الثّور:

فردا تغنّيه ذبّان الرّياض كما غنّى الغواة بصنج عند أسوار

وقال حضرميّ بن عامر في طنين الذباب:

ما زال إهداء القصائد بيننا شتم الصّديق وكثرة الألقاب

حتّى تركت كأنّ أمرك بينهم في كلّ مجمعة طنين ذباب

ويقال: «ما قولي هذا عندك إلّا طنين ذباب».

****

(قصة في الهرب من الذّباب)

وحدّثني الحسن بن إبراهيم العلويّ قال: مررت بخالي، وإذا هو وحده يضحك، فأنكرت ضحكه؛ لأنّي رأيته وحده، وأنكرته، لأنّه كان رجلا زمّيتا ركينا ، قليل الضحك. فسألته عن ذلك فقال: أتاني فلان يعني شيخا مدينيا- وهو مذعور فقلت له: ما وراءك؟ فقال: أنا والله هارب من بيتي! قلت ولم؟ قال: في بيتي ذباب أزرق، كلما دخلت ثار في وجهي، وطار حولي وطنّ عند أذني، فإذا وجد مني غفلة لم يخطئ موق عيني. هذا والله دأبه ودأبي دهرا معه. قلت له: إنّ شبه الذباب بالذباب كشبه الغراب بالغراب؛ فلعلّ الذي آذاك اليوم أن يكون غير الذي آذاك أمس، ولعلّ الذي آذاك أمس غير الذي آذاك أوّل من أمس، فقال: أعتق ما أملك إن لم أكن أعرفه بعينه منذ خمس عشرة سنة. فهذا هو الذي أضحكني.

****

(أمثال في الغراب)

ويقال: «أصحّ بدنا من غراب»، و «أبصر من غراب»، و «أصفى عينا من غراب».

ويقال: «أرض لا يطير غرابها». قال النّابغة:

ولرهط حرّاب وقد سورة   في المجد ليس غرابها بمطار

جعله مثلا، يعني أنّ هذه الأرض تبلغ من خصبها أنّه إذا دخلها الغراب لم يخرج منها، لأنّ كلّ شيء يريده فيها.

ويقال: «وجد فلان تمرة الغراب»، كأنّه يتّبع عندهم أطيب التمر.

ويقال: «إنّه لأحذر من غراب» و: «أشد سوادًا من غراب».

****

(غراب البين)

وكلّ غراب فقد يقال له غراب البين إذا أرادوا به الشؤم، أمّا غراب البين نفسه، فإنّه غراب صغير. وإنّما قيل لكلّ غراب غراب البين، لسقوطها في مواضع منازلهم إذا بانوا عنها.

****

(القواطع والرواجع والأوابد)

قال أبو زيد: إذا كان الشتاء قطعت إلينا الغربان، أي جاءت بلادنا، فهي

قواطع إلينا، فإذا كان الصيف فهي رواجع. والطير التي تقيم بأرض شتاءها وصيفها أبدا فهي الأوابد. والأوابد أيضا هي الدواهي، يقال جاءنا بآبدة. ومنها أوابد الوحش، ومنها أوابد الأشعار.

والأوابد أيضا: الإبل إذا توحّش منها شيء فلم يقدر عليه إلا بعقر.

****

(صوت الغراب)

ويقال نغق الغراب ينغق نغيقا، بغين معجمة، ونعت ينعب نعيبا بعين غير معجمة. فإذا مرّت عليه السّنون الكثيرة وغلظ صوته قيل شحج يشحج شحيجا.

****

(أصل التطير في اللغة)

قال: وأصل التطيّر إنما كان من الطّير ومن جهة الطير، إذا مرّ بارحا أو سانحا ، أو رآه يتفلى وينتتف، حتى صاروا إذا عاينوا الأعور من النّاس أو البهائم، أو الأعضب أو الأبتر، زجروا عند ذلك وتطيّروا عندها، كما تطيّروا من الطير إذا رأوها على تلك الحال. فكان زجر الطّير هو الأصل، ومنه اشتقوا التطيّر، ثمّ استعملوا ذلك في كلّ شيء.

****

(مراعاة التفاؤل في التسمية)

وللطّيرة سمّت العرب المنهوش بالسّليم، والبرّيّة بالمفازة، وكنوا الأعمى أبا بصير، والأسود أبا البيضاء، وسمّوا الغراب بحاتم، إذ كان يحتم الزّجر به على الأمور.

فصار تطيّرهم من القعيد والنّطيح ومن جرد الجراد، ومن أن الجرادة ذات ألوان، وجميع ذلك- دون التّطيّر بالغراب.

****

فصل

قال أبو الحسن: كان يقال: «من رقّ وجهه رقّ علمه» .

وقال عمر: «تفقّهوا قبل أن تسودوا».

وقال الأصمعي: «وصلت بالعلم، وكسبت بالملح».

وقيل لدغفل: أنّى لك هذا العلم؟ قال: لسان سؤول، وقلب عقول.

****

انتهى ما اخترته من لطائف المجلد الثالث ويليه لطائف من المجلد الرابع.

(أحاديث وآثار في النمل)

قال: وحدثنا ابن جريج، عن ابن شهاب، عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة، عن ابن عباس، أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «من الدوابّ أربع لا يقتلن: النملة، والنّحلة، والصّرد، والهدهد».

وحدّثنا عبد الرحمن بن عبد الله المسعودي، قال: حدّثنا الحسن بن سعد، مولى علي بن عبد الرحمن بن عبد الله قال: «نزل رسول الله صلّى الله عليه وسلم منزلا فانطلق لحاجته، فجاء وقد أوقد رجل على قرية نمل، إمّا في شجرة وإمّا في أرض، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من فعل هذا؟! أطفئها أطفئها!»* .

أنّ أهل الأحنف بن قيس لقوا من النّمل أذى، فأمر الأحنف بكرسيّ فوضع عند جحرهنّ، فجلس عليه ثمّ تشهّد فقال: لتنتهنّ أو لنحرّقنّ عليكنّ، أو لنفعلنّ أو لنفعلنّ! قال: فذهبن.

وعوف بن أبي جميلة عن قسامة بن زهير قال: قال أبو موسى الأشعريّ: إنّ لكلّ شيء سادة، حتّى إنّ للنمل سادة.

عبد الله بن زياد المدنيّ، قال: أنبأنا ابن شهاب، عن أبي سلمة بن عبد الرحمن، عن أبي هريرة قال: «سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: خرج نبيّ من الأنبياء بالناس يستسقون، فإذا هم بنملة رافعة رأسها

إلــى الســماء، فقــال ذلـك النبــيّ: ارجعـوا فقـد اسـتجيب لكـم مـن أجـل هـذا النّمل!»**

*اسناده حسن.

**إسناده ضعيف

****

(استطراد لغوي)

قال: ويقال في لسانه حبسة: إذا كان فـي لسـانه ثقل يمنعـه من البيـان. فـإذا كان الثّقل الذي في لسانه من قبل العجمة قيل: في لسانه حكلة. والحكل من الحيوان كلّه ما لم يكن لـه صـوت يستبان بـاختلاف مخارجـه، عنـد حرجـه وضـجره، وطلبـه مـا يغذوه، أو عنـد هياجـه إذا أراد السّفاد، أو عنـد وعيد لقتال، وغير ذلك من أمره.

****

(أجنحة النّمل سبب هلاكها)

قال: ومن أسباب هلاك النّمل نبات الأجنحة له. وقد قال الشاعر :

وإذا استوت للنّمل أجنحة حتى يطير فقد دنا عطبه

وإذا صــار النّمـل كـذلك أخصـبت العصـافير؛ لأنهـا تصـطادها فـي حـال طيرانها.

*****

(الحلال والحرام من الطيبات في القرآن)

وقال الله تبارك وتعالى: {كُلُوا مِنْ طَيِّباتِ ما رَزَقْناكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ}.

ثمّ ذكر غير الطيّبات فقال: {حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَما أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَما أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا ما ذَكَّيْتُمْ وَما ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ، وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلامِ، ذلِكُمْ فِسْقٌ}

ثمّ قال: {هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولئِكَ شَرٌّ مَكاناً وَأَضَلُّ عَنْ سَواءِ السَّبِيلِ}

وقال:{ يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحَرِّمُوا طَيِّباتِ ما أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ}.

وقوله تعالى: {طَيِّباتِ}

تحتمل وجوها كثيرة، يقولون: هذا ماء طيّب، يريدون العذوبة. وإذا قالوا للبرّ والشّعير والأرز طيّب، فإنما يريدون أنّه وسط، وأنّه فوق الدّون. ويقولون: فم طيّب الرّيح، وكذلك البرّ، يريدون أنّه سليم من النّتن، ليس أنّ هناك ريحا طيبة ولا ريحا منتنة. ويقولون: حلال طيّب، وهذا لا يحل لك، ولا يطيب لك، وقد طاب لك أي حل لك، كقول: {فَانْكِحُوا ما طابَ لَكُمْ مِنَ النِّساءِ مَثْنى وَثُلاثَ وَرُباعَ}

****

(قصة طريفة في الاحتيال)

قال أبو الحسن: كان واحد يسخر بالنّاس، ويدّعي أنّه يرقي من الضّرس إذا ضرب على صاحبه. فكان إذا أتاه من يشتكي ضرسه قال له إذا رقاه: إيّاك أن تذكر إذا صرت إلى فراشك القرد؛ فإنّك إن ذكرته بطلت الرّقية! فكان- إذا آوى إلى فراشه- أوّل شيء يخطر على باله ذكر القرد، ويبيت على حاله من ذلك الوجع، فيغدو إلى الذي رقاه فيقول له: كيف كنت البارحة؟ فيقول: بتّ وجعا! فيقول: لعلّك ذكرت القرد! فيقول: نعم! فيقول: من ثمّ لم تنتفع بالرّقية!

****

(استطراد لغوي)

والعرب تقول للرّجل الصانع نجّارا، إن كان لا يعمل بالمثقب والمنشار ونحوه ولا يضرب بالمضلع ونحو ذلك، وتسميّه خبّازا إذا كان يطبخ ويعجن. وتسمّي العير لطيمة، وإن لم يكن فيها ما يحمل العطر إلّا واحد. وتقول: هذه ظعن فلان؛ للهوادج إذا كانت فيها امرأة واحدة. ويقال: هولاء بنو فلان؛ وإن كانت نساؤهم أكثر من الرجال.

****

(حديث عبيد الكلابي)

قال: وقلت مرّة لعبيد الكلابيّ- وأظهر من حبّ الإبل والشّغف بها ما دعاني إلى أن قلت له-: أبينها وبينكم قرابة؟ قال: نعم، لها فينا خؤولة. إنّي والله ما أعني البخاتيّ، ولكني أعني العراب، التي هي أعرب! قلت له: مسخك الله تعالى بعيرا! قال: الله لا يمسخ الإنسان على صورة كريم، وإنما يمسخه على صورة لئيم، مثل الخنزير ثم القرد. فهذا قول أعرابيّ جلف تكلم على فطرته.

****

(ما تضيء عينه من الحيوان)

وزعم محمد بن الجهم أنّ العيون التي تضيء بالليل كأنها مصابيح، عيون الأسد والنمور، والسّنانير والأفاعي. فبينا نحن عنده إذ دخل عليه بعض من يجلب الأفاعي من سجستان، ويعمل التّرياقات، ويبيعها أحياء ومعمولة، فقال له:

حدّثهم بالذي حدّثتني به من عين الأفعى. قال: نعم، كنت في منزلي نائما في ظلمة، وقد كنت جمعت رؤوس أفاع كنّ عندي، لأرمي بها، وأغفلت تحت السّرير رأسا واحدا، ففتحت عيني تجاه السّرير في الظلمة، فرأيت ضياء إلّا أنّه ضئيل ضعيف رقيق، فقلت: عين غول أو بعض أولاء السّعالى، وذهبت نفسي في ألوان من المعاني، فقمت فقدحت نارا، وأخذت المصباح معي، ومضيت نحو السرير فلم أجد تحته إلّا رأس أفعى، فأطفأت

السّراج ونمت وفتحت عيني، فإذا ذلك الضوء على حاله، فنهضت فصنعت كصنيعي الأوّل، حتى فعلت ذلك مرارا. قال: فقلت آخر مرّة: ما أرى شيئا إلّا رأس أفعى، فلو نحّيته! فنحّيته وأطفأت السّراج، ثمّ رجعت إلى منامي، ففتحت عيني فلم أر الضّوء، فعلمت أنّه من عين الأفعى، ثمّ سألت عن ذلك، فإذا الأمر حقّ، وإذا هو مشهور في أهل هذه الصّناعة.

****

(أظلم من حية)

قال: وأشياء من الحشرات لا تتخذ لنفسها ولا لبيضها ولا أولادها بيوتا، بل تظلم كلّ ذي جحر جحره، فتخرجه منه، أو تأكله إنّ ثبت لها.

والعرب تقول للمسيء: «أظلم من حيّة» لأنّ، الحيّة لا تتّخذ لنفسها بيتا. وكلّ بيت قصدت نحوه هرب أهله منه. وأخلوه لها.

وزعم أنّهم يقولون: «أظلم من ورل» كما يقولون: «أظلم من حيّة»، وكما يقولون: «أظلم من ذئب» ويقولون: «من استرعى الذّئب ظلم».

****

(تنّين أنطاكية)

وممّا عظّمها وزاد في فزع النّاس منها، الذي يرويه أهل الشام، وأهل البحرين، وأهل أنطاكية، وذلك أنّي رأيت الثلث الأعلى من منارة مسجد أنطاكية أظهر جدّة من الثلثين الأسفلين، فقلت لهم: ما بال هذا الثلث الأعلى أجدّ وأطرى؟ قالوا: لأنّ تنّينا ترفّع من بحرنا هذا، فكان لا يمرّ بشيء إلّا أهلكه، فمرّ على المدينة في الهواء، محاذيا لرأس هذه المنارة، وكان أعلى ممّا هي عليه، فضربه بذنبه ضربة، حذفت من الجميع أكثر من هذا المقدار، فأعادوه بعد ذلك، ولذلك اختلف في المنظر.

ولم يزل أهل البقاع يتدافعون أمر التّنّين. ومن العجب أنّك تكون في مجلس وفيه عشرون رجلا، فيجري ذكر التّنّين فينكره بعضهم. وأصحاب التثبت يدّعون العيان. والموضع قريب، ومن يعاينه كثير. وهذا اختلاف شديد.

****

(الحية الأصلة)

والأعراب تقول في الأصلة قولا عجيبا: تزعم أنّ الحيّة التي يقال لها الأصلة لا تمرّ بشيء إلّا احترق. مع تهاويل كثيرة، وأحاديث شنيعة.

****

(الأجدهاني)

وتزعم الفرس أنّ الأجدهاني أعظم من البعير، وأنّ لها سبعة رؤوس، وربّما لقيت ناسا فتبتلع من كلّ جهة فم ورأس إنسانا. وهو من أحاديث الباعة والعجائز.

****

(اختبار العسل)

وإذا أرادوا أن يمتحنوا جودة العسل من رداءته، قطروا على الأرض منه قطرة.

فإذا استدارت كأنها قطعة زئبق، ولم تأخذ من الأرض ولم تعطها فهو الماذيّ الخالص الذّهبيّ. فإن كان فيه غشوشة نفشت القطرة على قدر ما فيها، وأخذت من الأرض وأعطتها. وإن لم يقدروا على اللّحم الغريض دفنوه وغرّقوه في العسل، فإنهم متى رجعوا فغسلوه عنه وجدوه غضّا طريّا، لأنّه ذهبيّ الطّباع، ليس بينه وبين سائر الأجرام شيء. فهو لا يعطيه شيئا ولا يأخذ منه. وكذلك الذّهب إذا كان مدفونا.

****

(ما يحتاج إليه الناس)

وأنا أزعم أن الناس يحتاجون بديّا إلى طبيعة ثم إلى معرفة، ثم إلى إنصاف.

وأوّل ما ينبغي أن يبتدئ به صاحب الإنصاف أمره ألّا يعطى نفسه فوق حقها، وألّا يضعها دون مكانها، وأن يتحفظ من شيئين؛ فإن نجاته لا تتمّ إلّا بالتحفظ منهما:

أحدهما تهمة الإلف، والآخر تهمة السّابق إلى القلب- والله الموفق.

****

(معاناة الجاحظ في تأليف هذا الكتاب)

وما أكثر ما يعرض في وقت إكبابي على هذا الكتاب، وإطالتي الكلام، وإطنابي في القول، بيت ابن هرمة، حيث يقول:

إنّ الحديث تغر القوم خلوته   حتى يلجّ بهم عيّ وإكثار

وقولهم في المثل: «كل مُجْرٍ في الخلاءِ يُسَرُّ»*.

وأنا أعوذ بالله أن أغرّ من نفسي، عند غيبة خصمي، وتصفح العلماء لكلامي، فإني أعلم أن فتنة اللسان والقلم، أشدّ من فتنة النساء، والحرص على المال.

وقد صادف هذا الكتاب مني حالات تمنع من بلوغ الإرادة فيه، أوّل ذلك العلة الشديدة، والثانية قلة الأعوان، والثالثة طول الكتاب، والرابعة أني لو تكلفت كتابا في طوله، وعدد ألفاظه ومعانيه، ثمّ كان من كتب العرض والجوهر، والطّفرة، والتولد، والمداخلة، والغرائز، والتماس- لكان أسهل وأقصر أياما، وأسرع فراغا؛ لأني كنت لا أفزع فيه إلى تلقّط الأشعار، وتتبّع الأمثال، واستخراج الآي من القرآن، والحجج من الرّواية، مع تفرّق هذه الأمور في الكتب، وتباعد ما بين الأشكال. فإن وجدت فيه خللا من اضطراب لفظ، ومن سوء تأليف، أو من تقطيع نظام، ومن وقوع الشيء في غير موضعه- فلا تنكر، بعد أن صوّرت عندك حالي التي ابتدأت عليها كتابي.

ولولا ما أرجو من عون الله على إتمامه؛ إذ كنت لم ألتمس به إلّا إفهامك مواقع الحجج لله، وتصاريف تدبيره، والذي أودع أصناف خلقه من أصناف حكمته- لما تعرّضت لهذا المكروه.

فإن نظرت في هذا الكتاب فانظر فيه نظر من يلتمس لصاحبه المخارج، ولا يذهب مذهب التعنّت، ومذهب من إذا رأى خيرا كتمه، وإذا رأى شرّا أذاعه.

وليعلم من فعل ذلك أنّه قد تعرّض لباب إن أخذ بمثله، وتعرّض له في قوله وكتبه، أن ليس ذلك إلّا من سبيل العقوبة، والأخذ منه بالظلامة. فلينظر فيه على مثال ما أدّب الله به، وعرّف كيف يكون النظر والتفكير والاعتبار والتعليم؛ فإنّ الله عزّ وجلّ يقول: {وَإِذْ أَخَذْنا مِيثاقَكُمْ وَرَفَعْنا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا ما آتَيْناكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا ما فِيهِ}.

****

(مثل)

وفي المثل: «أدرك القويّمة لا تأكلها الهويّمة» يعني الصبي الذي يدرج ويتناول كلّ شيء سنح له، ويهوي به إلى فيه. كأنه قال لأمّه: أدركيه لا تأكله الهامّة! وهي الحيّة. وهو قوله في التعويذ: «ومن كلّ شيطان وهامّة، ونفس وعين لامّة».

****

(شعر في حمرة العين)

وقال في حمرة عيون النّاس في الحرب وفي الغضب، ابن ميّادة :

وعند الفزاري العراقي عارض كأنّ عيون القوم في نبضة الجمر

وفي حمرة العين من جهة الخلقة، يقول أبو قردودة، في ابن عمار حين قتله النّعمان:

إنّي نهيت ابن عمّار وقلت له: لا تأمنن أحمر العينين والشعره

إنّ الملوك متى تنزل بساحتهم   تطر بنارك من نيرانهم شرره

يا جفنة كإزاء الحوض قد هدمت   ومنطقا مثل وشي اليمنة الحبره

*****

(أسماء الحية)

وأكثر ما يذكرون من الحيات بأسمائها دون صفاتها: الأفعى، والأسود، والشجاع، والأرقم. قال عمر بن لجأ :

يلزق بالصّخر لزوق الأرقم

****

(استطراد لغوي)

وقال أبو زيد: نهشت أنهش نهشا. والنّهش: هو تناولك الشّيء بفيك، فتمضغه فتؤثّر فيه ولا تجرحه. وكذلك نهش الحيّة. وأمّا نهش السّبع فتناوله من الدّابّة بفيه، ثمّ يقطع ما أخذ منه فوه. ويقال نهشت اللحم أنهشه نهشا، وهو انتزاع اللّحم بالثّنايا؛ للأكل. ويقال نشطت العقد نشطا: إذا عقدته بأنشوطة. ونشطت الإبل تنشط نشطا: إذا ذهبت على هدى أو غير هدى، نزعا أو غير نزع. ونشطته الحيّة فهي تنشطه نشطا، وهو أن تعضّه عضّا. ونكزته الحيّة تنكزه نكزا، وهو طعنها الإنسان بأنفها. فالنّكز من كلّ دابّة سوى الحيّة العضّ. ويقال: نشطته شعوب نشطا وهي المنيّة.

قال: وتقول العرب. نشطته الشّعوب، فتدخل عليها التعريف.

****

(علة تسمية النهيش بالسليم)

ويسمون النهيش سليما على الطيرة. قال ابن ميّادة:

كأنّي بها لما عرفت رسومها   قتيل لدى أيدي الرّقاة سليم

****

(إنما أنت نعامة)

وقال يحيى بن نوفل:

فأنت كساقط بين الحشايا   تصير إلى الخبيث من المصير

ومثل نعامة تدعى بعيرا   تعاظمها إذا ما قيل طيري

فإن قيل احملي قالت فإنّي   من الطّير المربّة بالوكور

وإنما قيل ذلك في النّعامة؛ لأنّ النّاس يضربون بها المثل للرّجل إذا كان ممّن يعتلّ في كلّ شيء يكلفونه بعلة، وإن اختلف ذلك التكليف، وهو قولهم: «إنما أنت نعامة، إذا قيل لها احملي قالت: أنا طائر، وإذا قيل لها طيري قالت: أنا بعير».

****

(مثل)

ومن الأمثال قولهم: «صمّت حصاة بدم»، قال: فأصله أن يكثر القتل وسفك الدّماء، حتّى لو وقعت حصاة على الأرض لم يسمع لها صوت؛ لأنّها لا تلقى صلابة الأرض.

****

(الأعمى من ولد الحيوان)

كلّ مولود في الأرض يولد أعمى، إن كان تأويل العمى أنّه لا يبصر إلّا بعد أيام. فمنه ما يفتح عينيه بعد أيّام كالجرو؛ إلّا أولاد الدّجاج؛ فإنّ فراريجها تخرج كاسية كاسبة.

****

انتهى ما اخترته من لطائف المجلد الرابع ويليه لطائف من المجلد الخامس.

****

(النار والأحمر عند العرب)

ويقولون: «شراب كأنه النار» ، و «كأن لون وجهها النار» . وإذا وصفوا بالذكاء قالوا: «ما هو إلا نار» وإذا وصفوا حمرة القرمز وحمرة الذهب قالوا: «ما هو إلا نار».

قال: وقالت هند : «كنت والله في أيام شبابي أحسن من النار الموقدة!» .

وأنا أقول: لم يكن بها حاجة إلى ذكر «الموقدة» وكان قولها: «أحسن من النار» يكفيها. وكذلك اتهمت هذه الرواية.

وقال قدامة حكيم المشرق في وصف الذّهن: «شعاع مركوم، ونسم معقود، ونور بصّاص. وهو النار الخامدة، والكبريت الأحمر».

ومما قال العتّابي: «وجمال كل مجلس بأن يكون سقفه أحمر، وبساطه أحمر» .

وقال بشّار بن برد:

هجان عليها حمرة في بياضها   تروق بها العينين والحسن أحمر.

وقال أعرابيّ:

هجان عليها حمرة في بياضها   ولا لون أدنى للهجان من الحمر.

****

(من مواعظ الحسن البصري)

وقال الحسن: «والله يا ابن آدم، ما توبقك إلا خطاياك! قد أريد بك النجاة فأبيت إلا أن توقع نفسك» .

وشهد الحسن بعض الأمراء، وقد تعدّى إقامة الحدّ، وزاد في عدد الضرب، فكلمه في ذلك، فلما رآه لا يقبل النصح قال: أما إنك لا تضرب إلا نفسك، فإن شئت فقلّل، وإن شئت فكثّر.

وكان كثيرا ما يتلو عند ذلك: {فَما أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ}.

****

(عقاب الآخرة وعقاب الدنيا)

والعقاب عقابان: فعقاب آخرة، وعقاب دنيا. فجميع عقاب الدنيا بليّة من وجه، ونعمة من وجه. إذ كان يؤدّي إلى النعمة وإن كان مؤلما. فهو عن المعاصي زاجر، وإن كان داخلا في باب الامتحان والتعبّد، مع دخوله في باب العقاب والنعمة؛ إذ كان زجرا، وتنكيلا لغيره. وقد كلّفنا الصبر عليه، والرضا به، والتسليم لأمر الله فيه.

وعقاب الآخرة بلاء صرف، وخزي بحت. لأنه ليس بمخرج منه، ولا يحتمل وجهين.

*****

(معارف في النار)

وقال أبو إسحاق: الجمر في الشمس أصهب، وفي الفيء أشكل، وفي ظلّ الأرض- الذي هو الليل- أحمر. وأيّ صوت خالطته النار فهو أشد الأصوات، كالصاعقة، والإعصار الذي يخرج من شقّ البحر، وكصوت الموم*، والجذوة من العود إذا كان في طرفه نار ثم غمسته في إناء فيه ماء نوى منقع.

*الشمع، فارسي معرب.

****

(قول العرب في الشمس)

قال: وتقول العرب «الشمس أرحم بنا» .

وقيل لبعض العرب: أيّ يوم أنفع؟ قال: يوم شمال وشمس.

وقال بعضهم لامرأته:

تمنّين الطّلاق وأنت عندي   بعيش مثل مشرقة الشّمال

وقال عمر : «الشمس صلاء العرب» . وقال عمر: «العربيّ كالبعير، حيثما دارت الشمس استقبلها بهامته».

****

(أثر الجوّ في الأبدان)

وقال إياس بن معاوية: «صحّة الأبدان مع الشمس» . ذهب إلى أهل العمد والوبر.

وقال مثنّى بن بشير: «الحركة خير من الظل والسّكون».

وقد رأينا لمن مدح خلاف ذلك كلاما، وهو قليل.

وقيل لابنة الخسّ: أيّما أشدّ: الشتاء أم الصيف؟ قالت: ومن يجعل الأذى كالزمانة؟!.

وقال أعرابيّ: لا تسبّوا الشّمال فإنها تضع أنف الأفعى، وترفع أنف الرّفقة.

وقال خاقان بن صبيح، وذكر نبل الشتاء وفضله على نبل الصيف فقال:

«تغيب فيه الهوام، وتنجحر فيه الحشرات، وتظهر الفرشة والبزّة، ويكثر فيه الدّجن؛ وتطيب فيه خمرة البيت، ويموت فيه الذّبان والبعوض، ويبرد الماء، ويسخن الجوف، ويطيب فيه العناق» .

وإذا ذكرت العرب برد الماء وسخونة الجوف قالت: «حرّة تحت قرّة»*.

*في اللسان هو مثل الذي يظهر خلاف ما يضمر.

****

(نار الزحفتين)

قال : ومن النيران «نار الزّحفتين» ، وهي نار أبي سريع، وأبو سريع هو العرفج .

وقال قتيبة بن مسلم، لعمر بن عبّاد بن حصين: والله للسّؤدد أسرع إليك من النار في يبيس العرفج!.

وإنما قيل لنار العرفج: نار الزحفتين؛ لأن العرفج إذا التهبت فيه النار أسرعت فيه وعظمت، وشاعت واستفاضت، في أسرع من كل شيء. فمن كان في قربها يزحف عنها، ثم لا تلبث أن تنطفئ من ساعتها، في مثل تلك السرعة؛ فيحتاج الذي يزحف عنها أن يزحف إليها من ساعته؛ فلا تزال للمصطلي كذلك، ولا يزال المصطلي بها كذلك. فمن أجل ذلك قيل: «نار الزّحفتين» .

****

(راحة الموت)

قال: وممّا يشبّه النار فيه بالإنسان، أنك ترى للمصباح قبل انطفائه ونفاد دهنه، اضطراما وضياء ساطعا، وشعاعا طائرا، وحركة سريعة وتنقضا شديدا، وصوتا متداركا. فعندها يخمد المصباح.

وكذلك الإنسان، له قبل حال الموت، ودوين انقضاء مدّته بأقرب الحالات، حال مطمعة تزيد في القوة على حاله قبل ذلك أضعافا، وهي التي يسمونها «راحة الموت»، وليس له بعد تلك الحال لبث.

****

(نار الغول)

قال: ونار أخرى، وهي التي تذكر الأعراب أن الغول توقدها بالليل، للعبث والتخليل، وإضلال السابلة.

قال أبو المطراب عبيد بن أيوب العنبريّ:

فلله درّ الغول أيّ رفيقة لصاحب قفر خائف متقتّر

أرنّت بلحن بعد لحن وأوقدت حواليّ نيرانا تبوخ وتزهر.

****

(استطراد لغوي)

والجمار: الحصى الذي يرمى به. والرّمي: التجمير، قال الشاعر :

ولم أر كالتجمير منظر ناظر ولا كليالي الحجّ أفتنّ ذا هوى

والتجمير أيضا: أن يرمى بالجند في ثغر من الثّغور، ثم لا يؤذن لهم في الرجوع.

وقال حميد الأرقط:

فاليوم لا ظلم ولا تتبير ولا لغاز إن غزا تجمير

وقال بعض من جمّر من الشعراء في بعض الأجناد:

معاوي إمّا أن تجهّز أهلنا إلينا، وإما أن نؤوب معاويا

أجمّرتنا تجمير كسرى جنوده ومنّيتنا حتى مللنا الأمانيا

ويقال قد أجمر الرجل: إذا أسرع أو أعجل مركبه.

وقال الراجز:

أجمر إجمارا له تطميم

التّطميم: الارتفاع والعلوّ. ويقال: أجمر ثوبه، إذا دخّنه.

والمجمرة والمجمر: الذي يكون فيه الدّخنة. وهو مأخوذ من الجمر.

ويقال: قد جمّرت المرأة شعرها إذا ضفرته. والضّفر يقال له الجمير . قال:

ويسمى الهلال قبل ليلة السّرار بليلة: «ابن جمير» قال أبو حردبة :

فهل الإله يشيّعني بفوارس لبني أميّة في سرار جمير

وأنشدني الأصمعيّ:

مضفورها يطوى على جميرها

ويقال: قد تجمّر القوم، إذا هم اجتمعوا حتى يصير لهم بأس، ويكونوا كالنار على أعدائهم فكأنهم جمرة، أو كأنهم جمير من شعر مضفور، أو حبل مرصّع القوى.

وبه سمّيت تلك القبائل والبطون من تميم: الجمار.

والمجمّر مشدّد الميم: حيث يقع حصى الجمار. وقال الهذلي:

لأدركهم شعث النّواصي كأنهم   سوابق حجّاج توافي المجمّرا

ويقال خفّ مجمّر: إذا كان مجتمعا شديدا.

ويقال: عدّ فلان إبله أو خيله أو رجاله جمارا: إذا كان ذلك جملة واحدة.

****

(ماء السماء)

وحين اجتهدوا في تسمية امرأة بالجمال. والبركة، والحسن. والصّفاء، والبياض قالوا: ماء السماء. وقالوا: المنذر بن ماء السماء.

ويقال: صبغ له ماء، ولون له ماء، وفلان ليس في وجهه ماء، وردّني فلان ووجهي بمائه. قال الشاعر:

ماء الحياء يجول في وجناته.

****

(من قول الجاحظ عن الكتاب)

ولولا سوء ظني بمن يظهر التماس العلم في هذا الزمان، ويذكر اصطناع الكتب في هذا الدهر- لما احتجت في مداراتهم واستمالتهم، وترقيق نفوسهم وتشجيع قلوبهم، مع كثرة فوائد هذا الكتاب- إلى هذه الرياضة الطويلة، وإلى كثرة هذا الاعتذار، حتى كأنّ الذي أفيده إياهم أستفيده منهم، وحتى كأنّ رغبتي في صلاحهم، رغبة من يرغب في دنياهم، ويتضرّع إلى ما حوته أيديهم.

فإن مللت الكتاب واستثقلت القراءة، فأنت حينئذ أعذر، ولحظّ نفسك أبخس. وما عندي لك من الحيلة إلا أن أصوّره لك في أحسن صورة، وأقلّبك منه في الفنون المختلفة، فأجعلك لا تخرج من الاحتجاج بالقرآن الحكيم إلا إلى الحديث المأثور، ولا تخرج من الحديث إلا إلى الشّعر الصحيح، ولا تخرج من الشّعر الصحيح الظريف إلا إلى المثل السائر الواقع، ولا تخرج من المثل السائر الواقع إلا إلى القول في طرف الفلسفة، والغرائب التي صحّحتها التجربة، وأبرزها الامتحان، وكشف قناعها البرهان، والأعاجيب التي للنفوس بها كلف شديد وللعقول الصحيحة إليها النزاع القويّ.

ولذلك كتبته لك، وسقته إليك، واحتسبت الأجر فيك.

فانظر فيه نظر المنصف من الأكفاء والعلماء، أو نظر المسترشد من المتعلّمين والأتباع. فإن وجدت الكتاب الذي كتبته لك يخالف ما وصفت فانقصني من نشاطك له على قدر ما نقصتك مما ينشطك لقراءته، وإن أنت وجدتني- إذا صحّ عقلك وإنصافك- قد وفّيتك ما ضمنت لك فوجدت نشاطك بعد ذلك مدخولا، وحدّك مفلولا فاعلم أنا لم نؤت إلا من فسولتك*، ومن فساد طبعك، ومن إيثارك لما هو أضرّ بك.

*أن يكون نذلًا لا مروءة له.

****

(باب مما قالوا في السرّ)

قال ابن ميّادة :

أتظهر ما في الصّدر أم أنت كاتمه   وكتمانه داء لمن هو كاتمه

وإضماره في الصدر داء وعلّة   وإظهاره شنع لمن هو عالمه

وتقول العرب: «من ارتاد لسرّه موضعًا فقد أشاعه» .

وأرى الأول قد أذن في واحد وهو قوله:

وسرّك ما كان عند امرئ   وسرّ الثلاثة غير الخفي

وقال الآخر فيما يوافق فيه المثل الأول:

فلا تفش سرّك إلا إليك فإنّ لكلّ نصيح نصيحا

فإني رأيت غواة الرجال لا يتركون أديما صحيحا

وقال أبو محجن الثّقفي:

وقد أجود وما مالي بذي فنع وأكتم السّرّ فيه ضربة العنق

وقال عمر بن الخطاب، رضي الله عنه : «من كتم سرّه كان الخيار في يده».

وقال بعض الحكماء: «لا تطلع واحدا من سرّك، إلا بقدر ما لا تجد فيه بدّا من معاونتك».

وقال آخر: «إنّ سرّك من دمك، فانظر أين تريقه!».

****

(ضيق صدر النظّام بحمل السرّ)

وكان أبو إسحاق إبراهيم بن سيّار النظّام. أضيق الناس صدرا بحمل سرّ وكان شرّ ما يكون إذا يؤكّد عليه صاحب السر وكان إذا لم يؤكّد عليه ربما نسي القصّة، فيسلم صاحب السرّ.

وقال له مرة قاسم التمّار: سبحان الله ما في الأرض أعجب منك، أودعتك سرّا فلم تصبر عن نشره يوما واحدا، والله لأشكونّك للناس! فقال: يا هؤلاء، سلوه نممت عليه مرة واحدة، أو مرتين، أو ثلاثا، أو أربعا، فلمن الذنب الآن؟

فلم يرض بأن يشاركه في الذّنب، حتى صيّر الذّنب كله لصاحب السرّ.

****

(شعر في حفظ السرّ)

وقال رجل من بني سعد:

إذا ما ضاق صدرك عن حديث فأفشته الرجال فمن تلوم

إذا عاتبت من أفشى حديثي وسرّي عنده فأنا الظلوم

وإني حين أسأم حمل سرّي وقد ضمّنته صدري سؤوم

ولست محدّثا سرّي خليلا ولا عرسي، إذا خطرت هموم

وأطوي السرّ دون الناس، إني لما استودعت من سرّ كتوم.

****

(وصية العباس لابنه في حفظ السر)

أبو الحسن، عن محمد بن القاسم الهاشمي قال: قال العباس بن عبد المطلب لعبد الله ابنه: «يا بنيّ أنت أعلم منّي، وأنا أفقه منك، إن هذا الرجل يدنيك- يعني عمر بن الخطاب- فاحفظ عني ثلاثا: لا تفش له سرّا، ولا تغتابنّ عنده أحدا، ولا يطّلعنّ منك على كذبة».

****

(باب في ذكر المنى)

قال: سئل ابن أبي بكرة: أيّ شيء أدوم إمتاعا؟ قال: المنى.

قال : وقال يزيد بن معاوية على منبره: ثلاث يخلقن العقل، وفيها دليل على الضّعف: سرعة الجواب، وطول التمنّي، والاستغراق في الضّحك!

وقال عباية الجعفي: ما سرّني بنصيبي من المنى حمر النّعم! وقال الأصمعي: قال ابن أبي الزّناد: المنى والحلم أخوان.

وقال معمّر بن عبّاد: «الأماني للنّفس، مثل التّرّهات للّسان» .

وقال الشاعر:

الله أصدق والآمال كاذبة وجلّ هذي المنى في الصّدر وسواس

وقال الآخر :

إذا تمنّيت مالا بتّ مغتبطا   إنّ المنى روس أموال المفاليس

لولا المنى متّ من همّ ومن حزن إذا تذكرت ما في داخل الكيس

وقال بعض الأعراب:

منى إن تكن حقّا تكن أحسن المنى   وإلّا فقد عشنا به زمنا رغدا

أمانيّ من سلمى حسان كأنما   سقتني بها سلمى على ظما بردا

وقال بشار :

كررنا أحاديث الزمان الذي مضى   فلذّ لنا محمودها وذميمها

وقال: وفي الحديث المأثور: «ما عظمت نعمة الله على أحد إلّا عظمت مؤونة الناس عليه» .

قال: وقيل لمزبّد: أيسرّك أن عندك قنّينة شراب؟ قال: يا ابن أمّ، من يسرّه دخول النار بالمجاز؟! قال: وقدّموا إلى أبي الحارث جمّيز جام خبيص وقالوا له: أهذا أطيب أم الفالوذج؟ قال: لا أقضي على غائب! قال: وقال مدينيّ لرجل: أيسرّك أن هذه الدار لك؟ قال: نعم. قال: وليس إلا نعم فقط؟ قال: فما أقول؟ قال: تقول: نعم، وأحمّ سنة! قال: نعم، وأنا أعور.

قال : وقيل لمزبّد: أيسرّك أن هذه الجبّة لك؟ قال: نعم، وأضرب عشرين سوطا. قال: ولم تقول هذا؟ قال: لأنه لا يكون شيء إلا بشيء.

قال: وقال عبد الرحمن بن أبي بكرة: من تمنّى طول العمر فليوطّن نفسه على المصائب.

يقول: إنه لا يخلو من موت أخ، أو عمّ، أو ابن عمّ، أو صديق، أو حميم وقال المجنون.

****

(أحلام العصافير)

وذلك أنهم يضربون المثل بأحلام العصافير لأحلام السّخفاء. وقال دريد بن الصّمّة:

يا آل سفيان ما بالي وبالكم   أنتم كثير وفي أحلام عصفور

وقال حسّان بن ثابت :

لا بأس بالقوم من طول ومن عظم   جسم البغال وأحلام العصافير.

****

(الشيخ والعصفور)

وفي المثل: أنّ شيخا نصب للعصافير فخّا، فارتبن به وبالفخ، وضربه البرد، فكلما مشى إلى الفخّ وقد انضمّ على عصفور، فقبض عليه ودقّ جناحه، وألقاه في وعائه، دمعت عينه مما كان يصكّ وجهه من برد الشّمال. قال: فتوامرت العصافير بأمره وقلن: لا بأس عليكنّ، فإنه شيخ صالح رحيم رقيق الدّمعة! قال: فقال عصفور منها: لا تنظروا إلى دموع عينيه، ولكن انظروا إلى عمل يديه!

****

(قصف الجاحظ)

ودخلت مرة أنا وحمدان بن الصباح على عبيد بن الشّونيزي فإذا عنده برنيّة زجاج، فيها عشرون عقربا وعشرون فأرة، فإذا هي تقتتل، فخيّل لي أن تلك الفأر قد اعتراها ورم من شدة وقع اللسع. ورأيت العقارب قد كلّت عنها وتاركتها، ولم أر إلا هذا المقدار الذي وصفت.

وحدثنا عنها عبيد بأعاجيب. ولو كان عبيد إسنادا لخبّرت عنه، ولكنّ موضع البياض من هذا الكتاب خير من جميع ما كان لعبيد.

****

(تمني كثرة الجرذان)

قال: ووقفت عجوز على قيس بن سعد، فقالت: أشكو إليك قلّة الجرذان.

قال: ما ألطف ما سألت! لأملأنّ بيتك جرذانا. تذكر أنّ بيتها قفر من الأدم والمأدوم، فأكثر لها يا غلام من ذلك.

****

(شعر وأمثال في الحبارى)

وقالوا في المثل: «مات فلان كمد الحبارى»، وقال أبو الأسود الدؤلي:

وزيد ميّت كمد الحبارى إذا ظعنت هنيدة أو تلمّ

ويروى: «ملمّ» وهو اسم امرأة.

وذلك أن الطير تتحسّر وتتحسّر معها الحبارى. والحبارى إذا نتفت أو تحسّرت أبطأ نبات ريشها، فإذا طار صويحباتها ماتت كمدا.

وأما قوله: «أو تلمّ» يقول: أو تقارب أن تظعن.

وقال عثمان بن عفان رضي الله عنه: «كلّ شيء يحبّ ولده حتى الحبارى!». يضرب بها المثل في الموق.

****

(أمثال في المعز والضأن)

ويقال: «فلان ماعز من الرّجال»، و «فلان أمعز من فلان» . والعتاق معز الخيل، والبراذين ضأنها.

وإذا وصفوا الرّجل بالضعف والموق قالوا: «ما هو إلا نعجة من النعاج»

ويقولون في التقديم والتأخير: «ما له سبد ولا لبد»*.

*السبد شعر المعز، واللبد الصوف.

****

(قولهم: ما له سبد ولا لبد)

وتقول العرب: «ما له عندي سبد ولا لبد» . فقدّموا السّبد، ففي هذا المعنى أنهم قدموا الشّعر على الصوف.

فإن قال قائل: فقد قدّموا في مواضع كثيرة ذكر ما هو أخسّ فقالوا: «ما له عندي قليل ولا كثير»، و«العير والنّفير» حتى قالوا: الخلّ والزيت.

****

(طائفة من الأمثال)

وتقول العرب: «لا يكون ذلك حتى يجمع بين الأروى والنعام»* و «حتى يجمع بين الماء والنار» ، و «حتى يشيب الغراب»، و «حتى يبيضَّ القار»، و «حتى تقع السماء على الأرض» .

ومن حديث الأمثال: «حتى يجيء نشيط من مرو»**. وهو لأهل البصرة.

و «حتى يجيء مصقلة من طبرستان»***، وهو لأهل الكوفة.

وقال الله عزّ وجلّ: {وَلا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِياطِ}

وتقول العرب: «لا يكون ذلك حتى يجمع بين الضب والنون»، و: «حتى يجمع بين الضفدع والضّبّ!».

*لأن الأروى تسكن الجبال والنعام تسكن الفيافي.

**كان نشيط غلامًا لزياد بن أبي سفيان وكان بناءً، هرب قبل أن يشرف وجه دار زياد، وكان زياد لا يرضى إلا عمله، فقيل له: لم لا تشرف دارك؟ فقال: حتى يجيء نشيط من مرو، فصار مثلًا لكل ما لا يتم.

*** هو مصقلة بن هبيرة، أحد بني ثعلبة بن شيبان، كان معاوية وجهه إلى طبرستان فأوغل بجيشه وكان عشرين ألف رجل فأخهم العدو وأهلك أكثرهم وهلك مصقلة، فضرب الناس به المثل.

****

(فصل)

ومدار الأمر على فهم المعاني لا الألفاظ، والحقائق لا العبارات. فكم من دارس كتابًا خرج غفلًا كما دخل، وكم من متفهّم لم يفهم؟! ولن يستطيع الفهم إلا من فرَّغ قلبه للتفهم، كما لا يستطيع الإفهام إلا من صحت نيته في التعليم.

****

انتهى ما اخترته من لطائف المجلد الخامس ويليه لطائف من المجلد السادس.

****

(فصل)

وشيء قد قتلته علما، وهو أنّي لم أر ذا كبر قطّ على من دونه إلا وهو يذلّ لمن فوقه بمقدار ذلك ووزنه.

****

(أروى من ضب)

وتقول العرب: «أروى من ضبّ»؛ لأن الضب عندهم لا يحتاج إلى شرب الماء، وإذا هرم اكتفى ببرد النّسيم، وعند ذلك تفنى رطوبته فلا يبقى فيه شيء من الدّم، ولا مما يشبه الدّم. وكذلك الحيّة. فإذا صارت كذلك لم تقتل بلعاب، ولا بمجاج، ولا بمخالطة ريق؛ وليس إلّا مخالطة عظم السّنّ لدماء الحيوان.

وأنشدوا:

لميمة من حنش أعمى أصم قد عاش حتّى هو لا يمشي بدم

فكلّما أقصد منه الجوع شم، وأما صاحب المنطق فإنه قال: باضطرار إنه لا يعيش حيوان إلّا وفيه دم أو شيء يشاكل الدم.

****

(استطراد لغوي)

قال: ويقال أضبّت أرض بني فلان: إذا كثرت ضبابها. وهذه أرض مضبّة، وأرض بني فلان مضبّة، مثل فئرة من الفأر، وجرذة من الجرذان، ومحواة

ومحياة من الحيّات. وجردة من الجراد، وسرفة من السّرفة، ومأسدة من الأسود، ومثعلة من الثّعالب؛ لأن الثّعلب يسمّى ثعالة، والذّئب ذؤالة.
ويقال أرض مذبّة من الذّباب. مذأبة من الذّئاب.
ويقال في الضّبّ: وقعنا في مضابّ منكرة، وهي قطع من الأرض تكثر ضبابها.
قال: ويقال أرض مربعة، كما يقال مضبّة. إذا كانت ذات يرابيع وضباب.
واسم بيضها المكن، والواحدة مكنة.

****

(قولهم: أضل من ضب)

ويقال: «أضلّ من ضبّ».
والضلال وسوء الهداية يكون في الضبّ، والورل، والدّيك.

****

(استطراد لغوي)

وقد يقال للضّبّ والحيّة والورل، وما أشبه ذلك: فحّ يفحّ فحيحا. والفحيح: صوت الحية من جوفها، والكشيش والقشيش: صوت جلدها إذا حكّت بعضها ببعض.
وليس كما قال، ليس يسمع صوت احتكاك الجلد بالجلد إلّا للأفعى فقط.
وقال رؤبة:
فحّي فلا أفرق أن تفحّي   وأن ترحّي كرحى المرحّي
وقال ابن ميادة:
ترى الضبّ إن لم يرهب الضبّ غيره   يكشّ له مستكبرا ويطاوله.

****

(مسخ الضبّ وسهيل)

وأما قوله:
مسخ الضّبّ في الجدالة قدما   وسهيل السّماء عمدا بصغر.
فإنهم يزعمون أنّ الضّبّ وسهيلا كانا ماكسين عشّارين، فمسخ الله عز وجل أحدهما في الأرض، والآخر في السماء. والجدالة: الأرض، ولذلك يقال: ضربه فجدّله أي ألزقه بالأرض، أي بالجدالة.

****

(الغول والسعلاة عند العرب)

وأما قوله:

وتزوّجت في الشّبيبة غولا   بغزال وصدقتي زقّ خمر

فالغول اسم لكلّ شيء من الجن يعرض للسّفّار، ويتلوّن في ضروب الصّور والثّياب، ذكرا كان أو أنثى. إلّا أنّ أكثر كلامهم على أنّه أنثى

وقد قال أبو المطراب عبيد بن أيّوب العنبريّ:

وحالفت الوحوش وحالفتني   بقرب عهودهنّ وبالبعاد

وأمسى الذّئب يرصدني مخشّا   لخفّة ضربتي ولضعف آدي

وغولا قفرة ذكر وأنثى   كأنّ عليهما قطع البجاد

فجعل في الغيلان الذّكر والأنثى. وقد قال الشّاعر في تلوّنها:

فما تدوم على حال تكون بها   كما تلوّن في أثوابها الغول

فالغول ما كان كذلك، والسّعلاة اسم الواحدة من نساء الجن إذا لم تتغوّل لتفتن السّفّار.

قالوا: وإنما هذا منها على العبث، أو لعلّها أن تفزّع إنسانا جميلا فتغيّر عقله، فتداخله عند ذلك، لأنّهم لم يسلّطوا على الصّحيح العقل.

وهم إذا رأوا المرأة حديدة الطّرف والذّهن، سريعة الحركة، ممشوقة ممحّصة قالوا: سعلاة وقال الأعشى:

ورجال قتلى بجنبي أريك   ونساء كأنهنّ السّعالي.

*****

(قولهم: ظل النعامة، وظل الشيطان)

ويقال للرّجل المفرط الطّول: يا ظلّ النّعامة! وللمتكبّر الضخم: يا ظلّ الشيطان! كما قال الحجّاج لمحمد بن سعد بن أبي وقاص: بينا أنت، يا ظلّ الشّيطان، أشدّ النّاس كبرا إذ صرت مؤذّنا لفلان! وقال جرير في هجائه شبّة بن عقال، وكان مفرط الطّول:

فضح المنابر يوم يسلح قائما   ظلّ النّعامة شبّة بن عقال.

فأما قولهم: «منينا بيوم كظلّ الرمح» فإنّهم ليس يريدون به الطول فقط، ولكنّهم يريدون أنّه مع الطول ضيق غير واسع.

****

(مراتب الجنِّ)

ثمّ ينزلون الجن في مراتب. فإذا ذكروا الجنّيّ سالما قالوا: جني. فإذا أرادوا أنّه ممن سكن مع النّاس قالوا: عامر، والجميع عمّار. وإن كان ممن يعرض للصبيان فهم أرواح. فإن خبث أحدهم وتعرّم فهو شيطان، فإذا زاد على ذلك فهو مارد. قال الله عز ذكره: وَحِفْظاً مِنْ كُلِّ شَيْطانٍ مارِدٍ

فإن زاد على ذلك في القوّة فهو عفريت، والجميع عفاريت. قال الله تعالى: {قالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقامِكَ}.

وهم في الجملة جنّ وخوافي. قال الشاعر:

ولا يحسّ سوى الخافي بها أثر

فإن طهر الجني ونظف ونقي وصار خيرا كلّه فهو ملك، في قول من تأول قوله عز ذكره: {كانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ}

على أنّ الجنّ في هذا الموضع الملائكة.

****

(طبقات الملائكة)

قالوا: وكذلك الملائكة، من الحفظة، والحملة، والكروبيّين. فلا بدّ من طبقات. وربّما فرّق بينهم بالأعمال، واشتقّ لهم الاسم من السّبب كما قالوا لواحد من الأنبياء: خليل الله، وقالوا لآخر: كليم الله، وقالوا لآخر: روح الله.

****

(مراتب الشجعان)

والعرب تنزل الشّجعاء في المراتب. والاسم العامّ شجاع، ثمّ بطل، ثم بهمة، ثم أليس. هذا قول أبي عبيدة.

فأمّا قولهم: شيطان الحماطة، فإنّهم يعنون الحيّة. وأنشد الأصمعي:

تلاعب مثنى حضرميّ كأنّه   تعمّج شيطان بذي خروع قفر

وقد يسمّون الكبر والطغيان، والخنزوانة، والغضب الشّديد شيطانا على التّشبيه. قال عمر بن الخطاب، رضي الله تعالى عنه [٤] : «والله لأنزعنّ نعرته، ولأضربنّه حتى أنزع شيطانه من نخرته» .

****

(شياطين الشعراء)

وأما قوله:

بنت عمرو وخالها مسحل الخير   وخالي هميم صاحب عمرو

فإنهم يزعمون أنّ مع كلّ فحل من الشعراء شيطانا يقول ذلك الفحل على لسانه الشعر، فزعم البهراني أنّ هذه الجنّية بنت عمرو صاحب المخبّل، وأن خالها مسحل شيطان الأعشى. وذكر أن خاله هميم، وهو همّام. وهمّام هو الفرزدق. وكان غالب بن صعصعة إذا دعا الفرزدق قال: يا هميم.

وأما قوله: «صاحب عمرو» فكذلك أيضا يقال إن اسم شيطان الفرزدق عمرو.

وقد ذكر الأعشى مسحلا حين هجاه جهنّام فقال :

دعوت خليلي مسحلا ودعوا له   جهنّام جدعا للهجين المذمّم.

وذكره الأعشى فقال :

حباني أخي الجنّيّ نفسي فداؤه   بأفيح جيّاش العشيّات مرجم

وقال أعشى سليم:

وما كان جنّيّ الفرزدق قدوة   وما كان فيهم مثل فحل المخبّل

وما في الخوافي مثل عمرو وشيخه   ولا بعد عمرو شاعر مثل مسحل

وقال الفرزدق، في مديح أسد بن عبد الله:

ليبلغنّ أبا الأشبال مدحتنا   من كان بالغور أو مروي خراسانا

كأنّها الذّهب العقيان حبّرها   لسان أشعر خلق الله شيطانا.

****

(استطراد لغوي)

ويقال: هوت العقاب تهوي هويّا: إذا انقضّت على صيد أو غيره ما لم ترغه، فإذا أراغته قيل أهوت له إهواء. والإهواء أيضا التّناول باليد. والإراغة أن يذهب بالصيد هكذا وهكذا.

ويقال دوّم الطائر في جوّ السّماء، وهو يدوّم تدويما: إذا دار في السماء ولا يحرك جناحيه.

****

(تعليق كعب الأرنب)

وكانت العرب في الجاهليّة تقول: من علّق عليه كعب أرنب لم تصبه عين ولا نفس ولا سحر، وكانت عليه واقية؛ لأنّ الجنّ تهرب منها، وليست من مطاياها لمكان الحيض.

****

(تعشير الخائف)

وكانوا إذا دخل أحدهم قرية من جنّ أهلها، ومن وباء الحاضرة، أشدّ الخوف، إلّا أن يقف على باب القرية فيعشّر كما يعشّر الحمار في نهيقه، ويعلّق عليه كعب أرنب. ولذلك قال قائلهم:

ولا ينفع التّعشير في جنب جرمة   ولا دعدع يغني ولا كعب أرنب

الجرمة: القطعة من النّخل. وقوله: «دعدع» كلمة كانوا يقولونها عند العثار.

وقد قال عورة بن الورد، في التّعشير، حين دخل المدينة فقيل له: إن لم تعشّر هلكت! فقال:

لعمري لئن عشّرت من خيفة الرّدى   نهاق الحمير إنّني لجزوع

*****

(تسمية السنة الجدبة بالضبع)

وإذا كانت السّنة جدبة تأكل المال، سمّتها العرب الضّبع. قال الشّاعر:

أبا خراشة أمّا كنت ذا نفر   فإنّ قومي لم تأكلهم الضّبع.

****

انتهى ما اخترته من لطائف المجلد السادس ويليه لطائف من المجلد السابع.

****

(قتل المكاء للثعبان)

وحدث ابن الأعرابيّ عن هشام بن سالم، وكان هشام من رهط ذي الرّمّة،

قال: أكلت حيّة بيض مكّاء، فجعل المكّاء يشرشر على رأسها ويدنو منها، حتى إذا فتحت فاها تريده وهمّت به ألقى فيه حسكة، فلم يزل يلقي فيه حسكة بعد حسكة، فأخذت بحلقها حتى ماتت.

وأنشد ابن الأعرابيّ عند هذا الحديث قول الشاعر:

كأنّ لكلّ عند كلّ سخيمة   يريد بتخريق الأديم استلالها

وأنشد أبو عمرو الشيباني بيت شعر، وهو هذا المعنى بعينه، وهو قول الأسديّ الدّبيريّ:

إن كنت أبصرتني فذّا ومصطلما   فربّما قتل المكّاء ثعبانا

يقول: قد يظفر القليل بالكثير. والقليل الأعوان بالكثير الأعوان؛ والمكّاء من أصغر الطير وأضعفه، وقد احتال للثّعبان حتّى قتله.

****

(معرفة الدبّ)

وقال جالينوس: ومن علّم الدبّ الأنثى إذا وضعت ولدها أن ترفعه في الهواء أياما تهرب به من الذّرّ والنمل، لأنها تضعه كفدرة من لحم، غير متميّز الجوارح، فهي تخاف عليه الذّرّ، وذلك له حتف. فلا تزال رافعة له وراصدة، ومتفقّدة ومحوّلة له من موضع إلى موضع، حتى يشتد وتنفرج أعضاؤه.

****

(بعض ما قيل في العقل)

وقيل لرجل من الحكماء: متى عقلت؟ قال: ساعة ولدت. فلما رأى إنكارهم لكلامه قال: أمّا أنا فقد بكيت حين خفت، وطلبت الأكل حين جعت، وطلبت الثّدى حين احتجت، وسكتّ حين أعطيت. يقول هذه مقادير حاجاتي، ومن عرف مقادير حاجاته إذا منعها، وإذا أعطيها، فلا حاجة به في ذلك الوقت إلى أكثر من ذلك العقل. ولذلك قال الأعرابيّ:

سقى الله أرضا يعلم الضّبّ أنّها بعيد من الآفات طيبة البقل

بني بيته منها على رأس كدية وكلّ امرئ في حرفة العيش ذو عقل.

****

(قصة في ضبحة الثعلب وقبعة القنفذ)

وحدّث أبو عبيدة عن أبي عمرو بن العلاء قال: خطب ابن الزبير خطبة فاعترض له رجل فآذاه بكلمة، ثم طأطأ الرّجل رأسه، فقال ابن الزّبير: أين المتكلم؟ فلم يجبه فقال: «قاتله الله، ضبح ضبحة الثّعلب وقبع قبعة القنفذ» .

****

(قصة)

حمل ناس أبا الحلال الهدادي على الفيل أيّام الحجّاج، فتمنّع وأنشأ يقول:

أأركب شيطانا ومسخا وهضبة ... إلا إنّ رأيي قبل ذاك مضلّل

فقالوا له: لو علوته ما كان عندك إلّا كالبغل! فلما علاه صاح: الأرض الأرض! فلما خافوا أن يرمي بنفسه وهو شيخ كبير، أنزلوه، فقال بعد ذلك في كلمة له:

وما كان تحتي يوم ذلك بغلة ولكنّ جلبا من رفيع السّحائب.

****

(طرائف من اللغات والأخبار في الفيل)

الفيل، المعروف بهذا الاسم. يقال رجل فيل إذا كان في رأيه فيالة، والفيالة:

الخطأ والفساد. ويسمّون أيضا الرّجل بفيل، منهم فيل مولى زياد وحاجبه، وفي أنهار الفرات بالبصرة نهر يقال له فيل بانان وموضع آخر يقال له فيلان.

وقد يعرض بقدم الإنسان ورم جاس حتّى تعظم له قدمه وساقه، وصاحبه لا يبرأ منه، ويسمّى ذلك الورم داء الفيل.

ويسمّى الرّجل بدغفل، وهو ولد الفيل، ولا يسمّون بزندبيل. وبعض العرب يقول للذّكر من الفيلة فيل وللأنثى فيلة. كما يقولون أسد وأسدة، وذئب وذئبة، ولا يقولون مثل ذلك في ثعلب وضبع، وأمور غير ذلك، إلّا أن يكون اسما لإنسان.

قال سلمة بن عيّاش: قال لي رؤبة: «ما كنت أحب أن أرى في رأيك فيالة» .

وبالكوفة باب الفيل، وبواسط باب الفيل(وبمصر بركة الفيل).

ويقولون عنبسة الفيل، وهو النحويّ، وهو أحد قدماء النحويّين الحذّاق. وهو عنبسة بن معدان، وكان معدان يروض فيلا لزياد، فلما أنشد عنبسة بن معدان هجاء جرير للفرزدق قال الفرزدق:

لقد كان في معدان والفيل زاجر   لغنبسة الرّاوي عليّ القصائدا.

فلمّا تناشد النّاس بعد ذلك هذا الشعر قال عنبسة: إنّما قال الفرزدق:

لقد كان في معدان واللّؤم زاجر

فقالوا: إنّ شيئا فررت منه إلى اللّؤم لناهيك به قبحا! فعند ذلك سمّي عنبسة الفيل.

ويقال للرّجل إذا عنّف عند الرأي يراه: لم تفيّل رأيك؟ وقد فال رأي فلان.

****

(أسباب عداوات الناس)

وأسباب عداوات النّاس ضروب: منها المشاكلة في الصناعة، ومنها التقارب في الجوار، ومنها التقارب في النّسب، والكثرة من أسباب التّقاطع في العشيرة والقبيلة، والسّاكن عدو للمسكن، والفقير عدوّ للغني وكذلك الماشي والراكب، وكذلك الفحل والخصيّ، و «بغضاء السّوق موصولة بالملوك» ، وكذلك [المعتق عن دبر]* ، والموصى له بالمال الرغيب، وكذلك الوارث والموروث، ولجميع هذا تفسير ولكنه يطول.

*الذي تعلق حريته بموت مالكه.

****

(خوف عبد الله بن خازم من الجرذ)

وذكر عليّ بن محمد السميري قال: بينما عبد الله بن خازم السّلميّ عند عبيد الله بن زياد، إذ أدخل على عبد الله جرذ أبيض ليعجّب منه، فأقبل عبيد الله على عبد الله فقال: هل رأيت يا أبا صالح أعجب من هذا الجرذ قط؟ وإذا عبد الله قد تضاءل حتى صار كأنه فرخ، واصفرّ حتى صار كأنّه

جرادة ذكر، فقال عبيد الله: أبو صالح يعصي الرّحمن، ويتهاون بالشيطان، ويقبض على الثعبان، ويمشي إلى الأسد، ويلقى الرّماح بوجهه، وقد اعتراه من جرذ ما ترون؟! أشهد أنّ الله على كلّ شيء قدير.

****

(قطعة من أشعار الاتعاظ)

قال الشاعر:

عليك من أمرك ما تستطيع   وما ليس يغنيك عنه فذر

وللصّمت أجمل في حينه   من القول في خطل أو هذر

وكم غائب كان يخشى الرّدى   فعاد وأودى الذي في الحضر

وبينا الفتى يعجب النّاظرين   مال إلى عطفه فانقعر

وبعض الحوادث إن يبقه   فإنّ الفنا شأنه والكبر

وكم من أخي نجدة ماهر   تعلّقه الدّهر حتى عثر

وكم من أخي عثرة مقتر   تأتّى له الدّهر حتى انجبر

وقال علقمة بن عبدة:

وكلّ قوم وإن عزّوا وإن كثروا   عريفهم بأثافي الشّرّ مرجوم

والحمد لا يشترى إلا له ثمن   ممّا يضنّ به الأقوام معلوم

والجهل منقصة شين لصاحبه   والحلم آونة في النّاس معدوم

وكلّ حصن وإن طالت سلامته   على دعائمه لا بدّ مهدوم

ومن تعرّض للغربان يزجرها   على سلامته لا بدّ مشؤوم

ومطعم الغنم يوم الغنم مطعمه   أنّى توجّه والمحروم محروم

وقال عديّ بن زيد العباديّ، وهو أحد من قد حمل على شعره الحمل الكثير، ولأهل الحيرة بشعره عناية، وقال أبو زيد النحويّ: «لو تمنّيت أن أقول الشّعر ما قلت إلا شعر عديّ بن زيد» :

كفى زاجرا للمرء أيّام عمره   تروح له بالواعظات وتغتدي

فنفسك فاحفظها من الغيّ والرّدى   متى تغوها تغو الذي بك يقتدي

فإن كانت النّعماء عندك لامرئ   فمثلا بها فاجز المطالب أو زد

عن المرء لا تسأل وأبصر قرينه   فإنّ القرين بالمقارن مقتدي

ستدرك من ذي الجهل حقّك كله   بحلمك في رفق ولمّا تشدّد

وظلم ذوي القربى أشدّ عداوة   على المرء من وقع الحسام المهنّد

وفي كثرة الأيدي عن الظّلم زاجر   إذا خطرت أيدي الرّجال بمشهد

قال المهلب بن أبي صفرة: «عجبت لمن يشتري المماليك بماله كيف لا يشتري الأحرار بمعروفه».

وقال عبد الله بن جعفر لرجل يوصيه: «عليك بصحبة من إن صحبته زانك، وإن تركته شانك؛ إن سألته أعطاك، وإن تركته ابتداك؛ إن رأى منك سيّئة سدّها، وإن رأى حسنة عدّها؛ وإن وعدك لم يجرضك وإن ألجئت إليه لم يرفضك».

****

(شعر الأعمى)

وقال الخريميّ:

كفى حزنا أن لا أزور أحبّتي   من القرب إلّا بالتّكلّف والجهد

وأنّي إذا حيّيت ناجيت قائدي   ليعدلني قبل الإجابة في الرّدّ

إذا ما أفاضوا في الحديث تقاصرت   بي النّفس حتى ما أحير وما أبدي

كأني غريب بينهم لست منهم فإن لم يحولوا عن وفاء ولا عهد

أقاسي خطوبا لا يقوم بثقلها من الناس إلا كلّ ذي مرّة جلد

****

(باب في الحاجة)

قال ابن الأعرابيّ: قيل للأحنف: أتيناك في حاجة، لا ترزؤك ولا تنكؤك.

فقال: «ليس مثلي يؤتى في حاجة لا ترزأ ولا تنكأ» .

وقال أعرابيّ لرجل: «إني لم أصن وجهي عن الطّلب إليك، فصن وجهك عن ردّي، وأنزلني من كرمك بحيث وجهي من رجائك» .

وقال أبو عقيل بن درست: «لم يقض ذمام التّأميل، ولم يقم بحرمة الرّجاء إلّا من أعطاها حقّها، ووفّاها حظّها، وعرف قدرها، وكيف يستبقي النّعمة فيها، وكيف الشّكر على أداء حقّها، بالبشر عند المسألة، وقلّة التّضجّر عند المعاودة، وتوكيد الضّمان عند العدة، وانتهاز الفرصة عند القدرة. ويكون النّجح المعجل أحبّ إليه من عذر المصدق، وحتّى يرى أنّ حقّك عليه في بذل وجهك إليه أكثر من حقّه عليك في تحقيق أملك فيه. ثم إيجاب سترها، فإنّ سترها هو المخبر عنها، والدالّ عليها، والزّائد في قدرها، والمتولّي لنشرها» .

****

(من هجته زوجته)

قالت عصيمة الحنظليّة:

كأنّ الدّار حين تكون فيها علينا حفرة ملئت دخانا

فليتك في سفين بني عباد فتصبح لا نراك ولا ترانا

فلو أنّ البدور قبلن يوما لقد أعطيتها مائة هجانا

وقالت امرأة من بني ضبة لزوجها:

تراه أهوج ملعونا خليقته يمشي على مثل معوجّ العراجين

وما دعوت عليه قطّ ألعنه إلّا وآخر يتلوه بآمين

فليته كان أرض الرّوم منزله وأنّني قبله صيّرت بالصّين

****

(قصة الذئب والأعرابي)

وقد أصاب أعرابيّ جرو ذئب فربّاه ورجا حراسته وأن يألفه، فيكون خيرا له من الكلب، فلما قوي وثب على شاة له فأكلها، فقال الأعرابي:

أكلت شويهتي وربيت فينا فما أدراك أنّ أباك ذيب؟!

****

(أعجب الأشياء)

قال: وقال رجل مرّة: أخزى الله الفيل فما أقبحه. فقال بكر بن عبد الله المزنيّ: لا تشتم شيئا جعله الله آية في الجاهليّة، وإرهاصا للنبوّة.

وقال سعدان الأعمى النحوي: قلت للأصمعيّ: أيّ شيء رأيت أعجب؟ قال: الفيل.

وقيل لابن الجهم: أيّ أمور الدنيا أعجب؟ قال: الشمّ.

وقيل لإبراهيم النظّام: أيّ أمور الدّنيا أعجب؟ قال: الرّوح.

وقيل لأبي عقيل بن درست: أيّ أمور الدّنيا أعجب؟ قال: النّوم واليقظة.

وقيل لأبي شمر: أيّ أمور الدّنيا أعجب؟ قال: النّسيان والذّكر.

وقيل لسلم الخلّال: أيّ أمور الدّنيا أعجب؟ قال: النار.

وقيل لبطليموس: أيّ أمور الدنيا أعجب؟ قال: بدن الفلك. وقال مرّة أخرى: الضّياء.

وقيل لأبي عليّ عمر بن فائد الأسواريّ: أيّ شيء ممّا رأيت أعجب؟ قال:

الآجال والأرزاق.

وكان إبراهيم بن سيّار النّظام شديد التعجّب من الفيل.

وكان معبد بن عمر يقول: إنّ السرطان والنعامة أكثر عجائب من الفيل وهذا كله تفسير.

****

(من خصائص الكبار والفلاسفة)

قال: وإذا أسنّ القرشيّ رحل إلى الحجاز.

وقال: ما احتنك رجل قطّ إلا أحبّ الخلوة، وقالوا: ما فكّر فيلسوف قط إلا رأى الغربة أجمع لهمّه وأجود لخواطره.

****

(قول بكر المزني في الأرضة)

قال: وشتم رجل الأرضة فقال بكر بن عبد الله المزني: «مه، فهي التي أكلت جميع الصّحيفة التي تعاقد المشركون فيها على رسول الله صلى الله عليه وسلّم، إلا ذكر رسول الله، وبها تبيّنت الجنّ أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين، وبها تكشّف أمرها عند العوّام بعد الفتنة العظيمة عندهم، وكان على الخاصّة من ذلك أعظم المحن».

****

انتهى ما اخترته من لطائف المجلد السابع وبه ينتهي الكتاب.